د. عبد الرحمن عميرة

الكون والحياة بين العلم والدين

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

الكون والحياة
بين
العلم والدين



مقدمة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

.نحمدك اللهم حمد الشاكرين ونصلي ونسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الهداة الراشدين، ومن تبعهم بأحسان الى يوم الدين.

اللهم إنا نبرأ اليك من الحول والطول ونسألك التوفيق لما ترضاه من العمل والقول. ونعوذ بك أن نتكلف ما لا نحسن أو نقول ما لا نعلم، أو نماري في الحق أو نجادل عن الباطل أو أن نتخذ العلم صناعة أو الدين بضاعة.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ (البقرة: ٢٨٦).



الكون والحياة بين العلم والدين...

يقف العقل البشري مذهولا أمام التطور العظيم الذي أحرزته الانسانية في القرن العشرين في بعض جوانب المادة.

هذا التطور الذي لم يحققه جيل من الأجيال السابقة ولم تحلم به البشرية في تاريخها الطويل.

فهل استطاع الانسان عن طريق العلم أن يكشف مغاليق الكون ويتعرف على أسرار الحياة..؟

لا يستطيع منصف أن ينكر ما أحرزه الانسان من تقدم في مجال العلم الطبيعي. ولكن يبقى سؤال آخر.

هل وفق العلم في الاجابة على بعض التساؤلات التي تحوك في داخلنا ولا نجد لها جوابا..؟

وعندما أدخل العلم النفسي البشرية الى معمله ووضعها تحت مجاهره ومعداته أتراه عرف السير داخل دروبها ومسالكها وفض الأختام عن أسرارها ومعمياتها..؟

يقول «شاشاوان» أحد علماء الطبيعة: مهما يكن تقدمنا العجيب في العصر الحاضر علميا وصناعيا واقتصاديا واجتماعيا، فان عقولنا في أوقات السكون والهدوء عظماء كنا أو متواضعين، خياراً كنا أو أشراراً تعود الى التأمل في هذه المسائل الأزلية.

لم، وكيف..؟

من يجيب عن هذه الاسئلة..؟

أيجيب عنها العلم الجبار المكتسح في داخل معمله..؟

أيجيب عنها العلم المادي أم العلم الانساني..؟

أيجيب عنها علم الطب أم علم التشريح أم علم النفس..؟

لو كان الأمر أمر «شاشاوان» أو مجموعة من الناس أو جيل من الأجيال ما كان هناك بأس.

ولكن الامر أمر البشرية كلها، أمر الأجيال السابقة، والاجيال اللاحقة.

يقول: «بارتيلمي سانت هيلير»:

هذا اللغز الذي يستحث عقولنا. ما الكون..؟ وما الحياة..؟ ما الموت..؟ ما الذي يقود خطانا أثناء عبورنا رحلة الحياة.

والذي حيّر «بار تيلمي سانت هيلير» حيّر أيضا الشاعر المعاصر حتى قال:

ما الأماني وما المنايا وما الخلـ ـد وما القصد من صراع الحياة

كلمات بها تموت المعاني ومعان تحيا بلا كلمات

* * *

نقول مرة أخرى: ما الذي يقود خطى البشرية أثناء عبورها رحلة الحياة..؟

أهو الدين..؟ أهو العقل..؟ أهو العلم..؟

يقول بعض المفكرين: إن العلم قد أوجد الأصول والقواعد النهائية للحقيقة، ولم يترك للمستقبل الا النظر في التفاصيل.

إذن العلم، والعلم وحده هو الساحر الذي يجيب عن تساؤلات البشرية بالنسبة للكون والحياة وينقذها من هذه الحيرة.

ولكن «وليم جيمس» وهو من أشهر مفكري أمريكا على الاطلاق وأحد قادة الفكر الحديث في التربية وعلم النفس يقول:

«إن معرفتنا ليست الا قطرة بجانب بحر، وإن البحر هو جهلنا ومهما يكن من يقين أو عدمه حول كثير من الأشياء، فإن الكون المشاهد محاط بكون آخر أكبر منه ولكننا لا نعرف في الوقت الحاضر شيئًا عما يتصف به من صفات ايجابية».

يقول هذا الكلام رجل عرف خبايا العلم ودرس أصوله وقدراته وعاش في أمريكا حيث مجالات العلم ومعامل الاختراع التي لا تكف عن الجديد.

وصدق ربى في قوله:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الاسراء: ٨٥).

ويقول الدكتور كاريل:

«لست فيلسوفا ولكني رجل علم فقط قضيت الشطر الأكبر من حياتي في المعمل أدرس الكائنات الحية والشطر الثاني أراقب الانسان واحاول أن أفهمه».

فماذا كانت ثمرة هذه الدراسة الجادة الممتدة..؟ وبما عاد الدكتور كاريل من هذه الرحلة..؟

يقول عن نفسه..؟

«واقع الامر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق محدودة في دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة فنحن لا نعرف حتى الآن الاجابة على أسئلة كثيرة مثل:

١- كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكوّن المركب والأعضاء المؤقتة للخلية..؟

٢- كيف تقرر الجنس ناقلات الوراثة في نواة البيضة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟

٣- كيف تنضم الخلايا من تلقاء أنفسها لتكوّن الأنسجة والأعضاء..؟

وصدق ربي في قوله:

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨).

يابن الثرى فيما التطلع ... نحو آفاق الفضاء
أعلمت ما يخفيه جسمك ... من غموض أو خفاء
أعلمت أسرار الخلايا ... والتكاثر والنماء
أفقهت كيف تفاعل ... الطاقات في هذا البناء
أعلمت سر الجاذبية ... والحرارة والضياء
تلك الطلاسم يستوي ... فيها الذكاء مع الغباء
مهما علمت فأنت ... تضرب من خواء في خواء

واذا كان ذلك كذلك وأن العلم يقف عاجزا أمام بعض الأشياء التي تحيط بنا في الكون والحياة فماذا نفعل..؟

أنلجأ الى العقل لعله يكشف النقاب عن هذه الأسرار..؟

وهل في مقدوره اقتحام أسوارها وفض كنوزها..؟

الرأي عندي أن نسير مع العقل جولة فمن يدري..؟

لقد نادى مفكرو عصر التنوير في القرن الثامن عشر بوجوب سيادة العقل كمصدر للمعرفة على غيره.

من هؤلاء الفيلسوف الألماني «ولف» وفي انجلترا «لوك» وفي فرنسا «فولتير» وعن طريقهم وجدت الخصومة الفكرية بين العقل ورجال الدين هناك واتجه التفكير حينذاك الى اخضاع مبادئ الدين للعقل. ومن أجل ذلك سمي العصر بعصر سيادة العقل.

ولكن الفيلسوف «بلانش» يهاجم هذا الاتجاه وينتقد سيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة، ويذكر أن فلسفة التنوير أخطأت عندما قصدت

الى أن العقل وحده ومن نفسه يمكن أن يوجد الحقيقة وينظم الجماعة.

فاذا ما تركنا «بلانش» واتجهنا الى فيلسوف آخر هو «برجسون» نراه يقول عن العقل: «ان العقل يتصف بعجز طبيعي عن فهم الحياة».

وصاحب المذهب التجريبي: له كلام في غاية النفاسة فنراه يقول:

«غاية المعرفة الانسانية هي تحصيل علل الظواهر الطبيعية وترتيب آثارها في دائرة قليلة من العلل العامة، أما محاولة كشف علل أخرى لهذه العلل العامة أو كشف علة واحدة مشتركة لها فهي محاولة غير مجدية من الطريق الانساني أي لا يصل اليها الانسان وصولا علميا يقينيا».

فاذا أردنا أن نتجه الى مفكري الاسلام لنتعرف على رأيهم بالنسبة للعقل فنراهم يقررون: أن العقل هو الاداة التي وهبها الله للانسان وزوده عن طريقها بالوسائل التي تحقق له دور الخلافة في الأرض.

ودور العقل في الاسلام: هو التلقي عن الرسول والالتزام بالوحي:

وصلة الدين بالعقل تتلخص فيما يأتي:-

أولا: جاء الدين هاديا للعقل في مسائل معينة هي أولا ما وراء الطبيعة أي العقائد الخاصة بالله سبحانه وتعالى وبرسله وباليوم الآخر وبالغيب الالهي على وجه العموم.

ثانيا: في مسائل الأخلاق - أي الخير والفضيلة، وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الانساني ليكون الشخص صالحا.

ثالثا: في مجال التشريع الذي ينظم به المجتمع وتسعد به الانسانية.

وجاء الدين هاديا للعقل في هذه المسائل بالذات لأن العقل إذا بحث فيها بحثاً مستقلاً بنفسه فإنه لا يصل فيها الى نتيجة يتفق عليها الجميع. جاء الوحي هادياً للعقل وقائداً له في الأمور التي لا يتأتى للعقل أن يلج ميادينها، أو يقتحم حماها أو يدلي فيها برأي يتفق عليه الناس وليس من اختصاص العقل في الاسلام أن يوازن بين مقدراته الخاصة وما يقدره شرع الله.

إن له أن يعارض مفهوما عقلياً بشرياً للنص بمفهوم عقلي بشري آخر هذا مجاله، ولكنه ليس حكماً في المقدرات الدينية، ليس حكماً له الحرية في أن يصحح ويبطل، أو يقبل ويرفض، والا لوقع في دائرة المحظور.

يقول الله تعالى:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥).

هذا هو العقل في شرع الاسلام دائرة اختصاصه محدودة، وقدرته على كشف حقائق الكون لا تتعدى قدراً محدوداً. ولا يقدح هذا مطلقا في سلامة العقل، لأن العقل ميزان صحيح وأحكامه في كثير من الأوقات يقينية وخصوصا في عالم الرياضيات غير أننا لا نطمع أن نزن به أموراً فوق طاقته.

من ذلك الغيبيات فإن ذلك طمع في محال، فان فعلنا ذلك كنا كالرجل الذي رأى ميزانا يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدل على أن الميزان غير صادق في أحكامه، ولكن يدل فقط على مدى امكانياته وقدرته على استيعاب الأشياء.

وإذا كانت هذه قدرة العقل وحده المحدود أنلجأ الى الدين:

الناس لولا الدين ... كالانعام من ابل وشاءِ
الكون قام على ملايين ... المجرات الوضاءِ
في كل واحدة بلايين ... الشموس على استواءِ
كل يسير بأفقه ... دون انحراف والتواءِ
والارض فيه كذرة صغرى ... تطوف على ذكاءِ
والكل جاء من الفناء ... وسوف يمضي للفناءِ
سبحان من حاز الكمال ... ومن تفرد بالبقاءِ

نعم أنلجأ الى الدين...؟

وإن فعلنا أترانا نجد في رحابه وشرعه الاجابة عن كيف ولم..؟

إذا كان ذلك كذلك فلنقطع سويا رحلة متأنية هادئة في كليات الاسلام وجزئياته لنتعرف على بعض معميات الكون والحياة.

لقد عاشت البشرية ردحاً طويلاً من الزمن وهي تفتش عن الخالق لهذا الكون لتتوجه اليه بالعبادة وتخصه بالنسك ولكنها تاهت وضلت فتصورته مرة رعداً وبرقاً، وأخرى صنماً وحجراً وثالثة شجراً وكوكباً.

فلما جاءت الديانات السماوية وضعت حداً لهذه الاضطرابات وأرشدت البشرية الى الخالق المالك، الموجد المبدع وخاطبت الرسل أممهم جميعا بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١، ٢٢).

وعندما جاء الاسلام ذهب جماعة من اليهود الى الرسول - ﷺ - وقالوا له: يا محمد - صف لنا ربك. فنزل قول الله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الاخلاص: كاملة).

وكما أختلفت البشرية في تصورها للاله، تناكرت أيضا في تصورها لأصل الخلقة وحقيقة الانسان أوجد عن طريق الصدفة..؟

أم صنعته الطبيعة..؟

أم كان نتيجة لتطوير كائن آخر..؟

فأجاب الاسلام عن هذه التساؤلات ورد البشرية الى طريق الصواب بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا

ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤).

وهذا الكائن لم يخلق عبثا وإنما وجد لغاية، وخلق لهدف. قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذّاريات: ٥٦).

وأيضا عمارة الكون. قال تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

وحياته رحلة قصيرة، وأيامه معدوده فوق هذا الكوكب الارضي وأجزاء الانسان وتركيباته وأطرافه صنعت لتلائم هذا الدور وتتناسب مع تلك المدة فهو لا يبقى في رحلته اكثر مما قدر له والا تلفت أعضاؤه وفسدت خلاياه فلا تستطيع القيام بدور أو المشاركة في حياة.

ولا يكلف هذا الانسان اكثر مما يطيق، ولا يعطى من المعرفة فوق ما تحتاجه هذه الرحلة والا اختلطت عليه الاشياء وتعددت السبل..؟

وهذا الكون أيضا مخلوق ليتناسب وقدرة الانسان ويتلاءم مع مواهبه فلا يرهق من أمره عسرا.

وكل شيء محدود ومقدر: ليس للصدفة مكان ولا للرأي العجل موضع. قال تعالى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

وقال أيضا:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

وهذا الانسان الفاني الضعيف يستطيع أن يتصل بالقوة الكبرى قوة الله يتصل بلا وساطة أو كهانة أو قطع رحلة من آلاف الأميال. قال تعالى:

﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠).

لانه قريب من عباده أقرب مما يتصورون. قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وكل انسان يأخذ حقه كاملا لا ينقص منه شيء، وحياته ليست بقاؤه على ظهر الأرض فقط، وليست هي الرحلة القصيرة المحدودة ولكن هناك حياة باقية بعد هذه الحياة الفانية، فما نقص هنا ادخر له هناك، وما حرم منه في الدنيا يضاعف له في الدار الآخرة.

واذا كان ذلك كذلك فما الداعي الى القلق الذي يمزق الانسان في داخله، أو الحسرة على ما فات أو التألم على ما حرم منه.

وهل استطاعت البشرية بما أخترعت من مبادئ وأفكار أن توجد الرضا في داخل النفس..؟

إن الواقع المشاهد ينفي ذلك ويقرر أنها أوجدت التكالب والصراعات والحروب المدمرة. لانها لم تستطع أن تسوي بين الافراد جميعا ولن تستطيع.

والمذاهب المادية على ما بذلته من وعود وما سودته من قرارات لم تستطع أيضا أن تزيل الدمامة عن مشوه الصورة، أو تعوض الانسان فقد عضو واحد من أعضائه.

ولم تستطع بالرغم من تقدمها في المجال المادي أن تجعل من ضعف النظر قوة، ومن قصر القامة طولا، أو من العقم إخصابا أو أن تتحكم في نوع من الانجاب ولكن الدين وإن لم يفعل ذلك فهو يقدم البديل لذلك كله.

إنه يقدم الاطمئنان الى عدل السماء، وحكمة الخالق يقول الله تعالى:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦).

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦).

ومع ذلك فنصيبه مدخر وأجره محفوظ وقد لا تنكشف لنا حكمة الله وعدله عما قريب فعلينا أن نترصد لها.

وحكمة الله مبذولة لخلقه، وتعطى لمن اصطفى من عباده. قال تعالى:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

وإلهامات الله لا تقف عند حد ولا تنتهي عند عصر، ولا يختص بها جيل من الاجيال.

يقول الرسول - ﷺ -: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها»[١].

وكل انسان يمكن أن يكون قريبا من ربه، ووسيلة القرب معروفة. يقول الرسول - ﷺ :

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

ويقول الله تعالى:

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ (العلق: ١٩)[٢].

عندها ينتقل الانسان من الكون الى خالق الكون.

من عالمه المحدود الى رحاب الله الذي لا يحد.

ينتقل من ترابية الأرض الى شفافية السماء.

ينتقل من ضيق الدنيا الى سعتها.

ينتقل من قتامة الافكار الى صفاء الايمان.

فيعرف ما لم يكن يعرف، ويدرك ما لم يكن يدرك.

والموت ليس طلمسا وليس لغزاً، ولكنه مرحلة في الطريق ونقلة من

---

(١) ذكره الغزالي في الاحياء وقال العراقي: رواه الترمذي الحكيم في النوادر والطرائف في الاوسط من حديث محمد بن مسلمه، ولابن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رفعه.

دار الى دار وسياحة فريدة من رحاب الكون المحدود الى رحاب الخالق الذي لا يحد.

يا بن الثرى ناداك ربك ... فاستمع قدس النداء
وأعد نفسك للرحيل ... غدا الى دار البقاء
مهما هربت من القضاء ... فأنت في كف القضاء
فأهبط أو أصعد ما أستطعت ... فأنت في أسر الفناء
لك ضجعة تحت الثرى ... تبقى الى يوم الجزاء
ما أنت قط بمعجز ... في الأرض أو فوق السماء

واذا كان ذلك كذلك فما هو الكون وما هي الحياة..؟

قلنا في المبحث السابق: يقف العقل البشري مذهولا أمام التطور العظيم الذي أحرزته الانسانية في القرن العشرين في بعض جوانب المادة.

وقلنا لم يستطع الانسان بالرغم من هذا التطور العظيم أن يكشف عن طريق العلم. والعلم وحده مغاليق الكون أو يتعرف على أسرار الحياة..؟

وقلنا بأن العلم أخفق في الاجابة على بعض التساؤلات التي تحوك في داخلنا ولا نجد لها جوابا..؟

وقدمنا آراء العلماء في ذلك أمثال «وليم جيمس» والدكتور «كاريل» وغيرهم. أمثال الفيلسوف الالماني «ولف» والانجليزي «لوك» والفرنسي «فولتير».

وقدمنا آراء علماء المسلمين بالنسبة الى العقل وبأنه له حد محدود يقف عنده ولا يتخطاه. ويممنا وجهنا شطر الاسلام وقطعنا سويا رحلة متأنية هادئة في كليات الاسلام وجزئياته.

ويطيب لنا أن نلقي بعض الأضواء على الحياة والكون..؟

إن البشرية حتى هذه اللحظة لا تعرف شيئا عن حقيقة الحياة. وحقيقة الموت.. ولكننا جميعا ندرك مظاهرها في الأحياء والأموات.

ونحن جميعا ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت الى الله سبحانه وتعالى.

... إن دارون صاحب نظرية التطور أو الاختيار الطبيعي.. أخذ يتنزل في نظريته بالحياة درجة درجة، ويتعمق أغوارها قاعاً فقاعاً حتى استطاع في النهاية أن يردها الى الخلية الأولى ثم وقف بها هناك وقوف الحائر الذي انبهمت أمامه السبل لانه يجهل جهلا مطبقاً مصدر الحياة في الخلية الأولى.

كيف وجدت الحياة في هذه الخلية..؟

أوجدت عن طريق الطبيعة كما يدعي «دارون»..؟

أوجدت عن طريق الصدفة كما يردد البلهاء..؟

أم أن الذي أوجد سر الحياة في هذه الخلية المتناهية في الصغر هو الله سبحانه وتعالى كما يعتقد المؤمنون.

ومن قبل «دارون» الذي تخبط كثيرًا وهو يبحث عن أصل الأنواع أراد ابراهيم الخليل عليه السلام أن يتعرف على هذا اللغز المحير.

لغز الحياة..

كيف تنبعث الحياة من الأموات..؟

كيف تدب الحياة في النبتة الصغيرة..؟

كيف تظهر بوادر الحياة في البيضة المغلقة..؟

كيف تبرز في دودة قابعة في باطن الأرض..؟

كيف تتلبث الحياة في العلقة ثم تنتقل الى المضغة، وهي مستقرة في ظلمات ثلاث..؟ عندها خرج ابراهيم عليه السلام من تأملاته تلك مناجيًا ربه قائلا: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ

﴿قَلْبِىۖ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

واستجاب له ربه قائلا له: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ثم ماذا..؟ قام ابراهيم عليه السلام بذبح الطيور ثم عمل على تقطيعهن وتفريق أجزائهن على الجبل ثم دعا بأمر ربه فدبت الحياة في الطير مرة أخرى ثم عادت تسعى إليه.

ورأى ابراهيم السر الالهي يقع بين يديه، السر الذي يقع في كل لحظة، ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه، إنه سر هبة الحياة.

الحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن، ثم أخذت تنشأ بعد ذلك مرات لا حصر لها في كل حي جديد.

وبمناسبة ذكر الطير يقول صاحب كتاب حياة الحيوان: «هناك طائر يسمى العقعق يشبه الصقر في شكله، وجناحاه أكبر من جناحي الصقر وهو ذو لونين أبيض وأسود وهو من النوع الذي يدخر قوته ويخزنه».

وعن سفيان الثوري - رضي الله عنه قال: ليس شيء من الحيوان يخبّئ قوته الا الانسان والنمل والفأر والعقعق، وفي طبعه شدة الانقضاض على فريسته. قال الشاعر:

إذا بارك الله في طائر فلا بارك الله في العقعق

قصير الذنابى طويل الجناح متى ما يجد غفلة يخفق

يقلب عينيه في رأسه كأنهما قطرتا زئبق[١]

ويقول العالم الأمريكي: «جون فاين» أستاذ علم الطيور والحيوان عن العقعق: إنه يسمى عند العلماء بالطائر العابد، ولقد رصد العالم هذا الطائر لسنوات عدة، فماذا رأى، وجد أن وكره ضخم بصورة كبيرة،

---

(١) راجع حياة الحيوان للدميري.

وهو يخرج للصيد في أيام الشتاء والربيع فقط فاذا جاء الصيف قبع في وكره ولا يغادره قرابة ستة شهور من كل عام.

يقول د. «فاين» إن هذا الطائر يصطاد صغار الطير، وبعض الحيوانات الزاحفة فإذا ما صارت الفريسة بين مخالبه نقرها بمنقاره نقرة واحدة فتتخدر بالكامل ثم ينقلها الى وكره، وفي أيام العبادة التي لا يغادر فيها وكره إذا أراد طعاما نقر الفريسة مرة أخرى فتدب فيها الحياة فيستمتع بأكلها حية طازجة.

لقد عرفت البشرية قديما تخزين اللحوم عن طريق تقديده بالنار مرة وفوق الرمال الحارة مرة أخرى ثم تطور الأمر الى عملية التشويح بالسمن وبعض الشعوب كانت تختزن اللحوم في أواني مملوءة بعسل النحل.

ثم جاءت أدوات التبريد من ثلاجات وخلافه، وكثير من الأطباء يقررون أن بقاء الخضراوات واللحوم لفترة تزيد عن شهر في الثلاجات يجعلها تفقد جزءا كبيرًا من قيمتها الغذائية.

ونتساءل من علَّم طائر العقعق هذه الطريقة الفذة، وهو أن يختزن طعامه طازجا لفترة طويلة.. والذي عجز الانسان عن التوصل إليها رغم تجاربه في تاريخه الممتد عبر السنين.

لقد توصل قدماء المصريين من آلاف السنين الى حفظ جثث الموتى بعيده عن التلف والتعفن لمدد متراوحة، ولكنهم لم يستطيعوا ومعهم أمم متجانسة، وشعوب متباينة أن يعيدوا الحياة الى الميت مرة أخرى، الا ما كان عن طريق المعجزة لعيسى عليه السلام.

نعم من ألهم الطائر هذه الطريقة العجيبة..؟

أهي الطبيعة كما يقول دارون والناعقون خلفه..؟

أهي الصدفة كما يدعي كسالى العلماء..؟

أم أن الذي ألهم الطائر طريقته هذه هو الله تعالى..؟

وصدق ربي في قوله:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل: ٩٣).

وقوله أيضا:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الغاشية: ١٧).

يقول الدكتور محمود النجار الاستاذ بجامعة أسيوط كلية الطب البيطري:

منذ حصولي على درجة البكالوريوس - وهذا السؤال يلح علي لماذا اختار الله سبحانه وتعالى الابل ليضرب به المثل على قدرته في الخلق بقوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: ١٧).

ولم يضرب المثل بالأسد وهو أشد قوة..؟

أو الفيل وهو أكثر ضخامة..؟

أو الزرافة وهي أطول عنقاً..؟

أو النمر وهو أشد وثباً..؟

يقول الدكتور: فقررت أن تكون رسالتي في الحصول على درجة الدكتوراه في الابل. هذا الحيوان العجيب الذي تحدث الله تعالى عنه.

يقول وأدخلته معملي، وعايشته معايشة كاملة، وأجريت عليه العديد من التجارب - فماذا كانت النتيجة..؟

يقول: إن المخلوقات جميعا التي خلقها الله تعالى كالانسان والحيوان والطير تتفق في ظاهرة واحدة، وهي أنه إذا تناول أي منها كمية كبيرة من الماء أكثر من طاقته أنفجرت كرات الدم الحمراء في داخل جسمه وعرضت حياته للخطر ما عدا الابل. هذا الحيوان العجيب فانه يستطيع أن يتناول أي كمية من الماء، ولا يصاب بأي ضرر، هكذا أثبتت التجارب التي أجراها الدكتور في معمله.

والدليل على ذلك أن خالد بن الوليد - رضي الله عنه - عندما أراد أن يقطع الصحراء الشاسعة - والتي تسمى بربع الخراب - لانقاذ جيش المسلمين على مشارف اليرموك. جاء ببعض الابل، ودفع في أجوافها بكمية هائلة من الماء حتى تحولت الى قرب ضخمة تسير على قدمين. وأخذ يغز السير الى هدفه وكلما أحس بحاجة الجيش الى الماء أمر بذبح بعض هذه الابل واستخرج من جوفها الماء ليسقي منه الخيل والدواب التي تحمل فرسان المسلمين.

ويقول الدكتور أيضا: ما توصلت إليه عن طريق التجارب مع الابل أن مخلوقات الله جميعاً تتفق في عدم مقدرتها على تناول الماء المالح وتنفر منه سريعاً - ما عدا الابل فإنه يمكن أن يستغني عن الماء العذب بالماء المالح لفترات طويلة، ولقد زوده الله سبحانه وتعالى بجهاز لتكرير المياه وتحويل ما فيها من أملاح ومعادن الى جزئية خاصة بالسمنة. والتي يقول الدكتور: إنها تجمع من الخصائص الطبيعية لعلاج الكثير من الأمراض المستعصية، والتي من أهمها عقم الرجال، والأمراض الروماتزمية المزمنة.

ولا تتعجب من جهاز التكرير لدى حيوان الابل فهناك بعض الأجهزة الأُخرى المعقدة في داخل أنثى الحيوان. يقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ (النحل: ٦٦).

فهذا اللبن الذي تدره ضروع الانعام مستخلص من بين فرث ودم.

والفرث: ما يتبقى في المعدة بعد الهضم، وامتصاص الامعاء للعصارة التي تتحول الى دم. هذا الدم يذهب الى كل خلية في الجسم فإذا صار الى غدد اللبن في الضرع تحول الى لبن ببديع صنع الله.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨).

وبمناسبة كرات الدم الحمراء والبيضاء التي تحدث عنها الدكتور

محمود النجار. يقول الله تعالى:

﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ (الطارق: ٤).

أولاً: يقول علماء التفسير: ان الله سبحانه يحفظنا من كثير من الأخطاء المحدقة بنا لأنه سبحانه ﴿خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ (يوسف: ٦٤).

وهذا ما لاحظه الشاعر العربي القديم حيث يقول:

لعمرك ما يدري أمرؤ كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا

ثانيا: إن الله سخر بعض ملائكته لتسجل علينا أقوالنا وأفعالنا ليجازينا عنها بما نستحقه من جزاء. قال تعالى:

﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ (الانفطار: ١٠-١٢).

ثالثا: أن على كل منا رقيبا يحفظه من أن يدمر الآخرين أو أن يعيث في الارض فساداً إلا حين يشاء الله أن يجعل بعض الناس فتنة للبعض الآخر كما قال تعالى:

﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ (الفرقان: ٢٠).

ويقول بعض علماء التشريح الذين رأوا عظمة الخالق في تسوية جسم الانسان:

«ان الله أودع في دم الانسان ما يسميه الأطباء» كرات الدم البيضاء وكل مليمتر مكعب من الدم يضم ثمانية آلاف كرة بيضاء مهمتها الدفاع عن الجسم إذا تسللت إليه جراثيم الأمراض فاذا اقتحمت الميكروبات الجسم البشري صدرت إشارة من المخ الى فصيلة من فصائل كرات الدم البيضاء بملاقاة العدو والالتحام به للقضاء عليه.

وقد فطن الأطباء الى هذه الخاصية فإذا انتشر وباء كالحمة الشوكية أو الجدري بادر الأطباء بتطعيم الأصحاء بجراثيم ضعيفة جداً من هذا الوباء لتتدرب كرات الدم البيضاء على ملاقاة هذا العدو تدريباً كافياً حتى إذا

تعرض الجسم للعدوى كانت لديها حصانة كافية وقدرة تامة على إبادة هذه الجراثيم.

أليست كرات الدم البيضاء جيشاً معدا لحفظ الجسم من جراثيم الأمراض الفتاكة.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق: ٤).

ويرى الأطباء تفسيراً جديداً آخر للآية: فإن الجراثيم إذا تسللت الى الجسم البشري عن طريق الأنف مثلاً وجدت ثلاثة خطوط دفاعية حافظة للجسم:

الأول منها: شعيرات الأنف الموجودة في داخله: فهي تعمل على تنقية الهواء من هذه الجراثيم وأمثالها.

والخط الثاني: غدد المخاط فإنها تفرز افرازات عديدة تطرد هذه الاجسام الدخيلة.

والخط الثالث: هو الخياشيم التي تنقي الهواء تنقية تامة وتدفئه حتى تكون حرارته مناسبة لحرارة الجسم حتى لا يصاب المستنشق بنزلة شعبية أو التهاب رئوي حاد.

وهكذا جميع أعضاء الجسم كل منها مزود بجهاز حافظ وواق من الاخطار.

وصدق ربي في قوله:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق: ٤).

أما علماء النفس فيفهمون الآية الكريمة فهماً جديداً فكل جسم بشري أمده الله بحافظ ينبهه الى ما يصيبه ويحميه من ارتكاب الآثام التي تدمره تدميراً ويطلقون على هذا الحافظ اسم «الرقيب» ويسميه البعض بالضمير. وقد يقع الانسان في خطأ ما فينبهه ضميره الى المبادرة باصلاح ما أخطأ فيه.

وهو ما أطلق عليه القرآن «النفس اللوامة».

ويرى علماء الأحياء رأياً آخر في الآية: وهو أن الله زوّد كل كائن حي بما يحفظه ويحميه في ميادين الصراع القائمة بين الأحياء.

فقد زوّد الانسان بالعقل ليحميه من فتك الحيوانات المفترسة.

وزوّد السلحفاة بالدرع الحجري الذي يحفظها.

وزوّد الثعابين بالسم الواقي.

والقنافذ بالأشواك.

والأسود بالمخالب والانياب.

والغزلان بالخفة والسرعة الفائقة.

حتى أن بعض النباتات الضعيفة زودها الله تعالى بالأشواك.

وصدق ربي في قوله:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق: ٤).

الكوارث الطبيعية بين الدين والعلم

لماذا تبتلى الكرة الأرضية بما يسميه الناس بالكوارث الطبيعية. .؟

ولماذا تنزل الكوارث على هذا الكوكب الأرضي بالذات. .؟

هذا الكوكب الذي جعله الله تعالى مهبطاً لخليفته، ومسرحاً لرسالات أنبيائه، وجعل قلوب أتباع الرسل فيه أوعية لكتبه وفرقانه.

أيحدث ذلك لأن تلك الكوارث من سنن الطبيعة ونواميسها ولا حيلة للبشرية فيها. .؟

ولهذا فالزلازل التي تقضي على الاخضر واليابس، وتقوض العمران هي من خصائص هذا الكون. .؟

والبراكين التي ترسل الحمم على ظهر الارض وتغطي مساحات كبيرة من العمران ناتج أن باطن الأرض لا زال ملتهبا فواراً بالكتل النارية والصخور الملتهبة.

وقس على ذلك الصواعق القاتلة، والرياح الناسفة، والخسف المميت أكل ذلك من خصائص هذا الكوكب الذي نعيش فيه؟

وما على البشرية بأسرها إلا أن تقف ضد نزعات الطبيعة وفورانها تقف لها بأسلحتها الفاتكة ومخترعاتها العاتية لتوقف مد الزلازل وتطبق على أفواه البراكين، وتقيم المتاريس والحواجز ضد الرياح الهوج فلا تزمجر، وتبطل مفعول الصواعق فلا تدمر.

وهل في مقدور البشرية ذلك. . .؟

أم أن ذلك ضرب من الوهم، ونوع من التفكير المريض الذي لا يقدم

ولا يؤخر..؟

إن لهذا الكون اللانهائي خالقه ومبدعه، العليم بكل ذرة من ذراته وبكل قطرة من مياه بحاره ومحيطاته.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (تبارك: ١٤).

وهو الذي يرسل الصواعق بارادته. قال تعالى:

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ (الرعد: ١٣).

وينشئ الزلازل بمشيئته قال تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (الزلزلة: ١-٥).

ويرسل الرياح مبشرات ملقحات قال تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ (الحجر: ٢٢).

ويرسلها مرة أخرى مهلكة وقاتلة قال تعالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦).

ويخرج من الأرض حمماً وناراً للخارجين عن عبوديته الرافضين الانصياع لمشيئته الكافرين بما أنزل على رسله، الذين يعيثون في الارض فساداً. لقد أرسل الله سبحانه وتعالى جميع رسله وأنبيائه بكلمة التوحيد. توحيد الخالق فلا اله الا الله.

وتوحيد العقيدة فلا دين الا الاسلام.

وتوحيد البشرية كلكم لآدم وآدم من تراب.

وكلمة التوحيد تتضمن نفياً واثباتاً تنفي ألوهية الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والاصنام والأوثان، وتنفي أيضا الالوهية المزيفة من أدعيائها من البشر. وهؤلاء الأدعياء ترهبهم هذه الكلمة وترعبهم - وهم يعلمون أن انتشارها يقضي على صولجانهم، ويشلّ عروشهم ولذا قال الرجل العربي بفطرته وسليقته عندما سمع رسول الله - ﷺ - يدعو الناس

إليها: يا محمد.

«هذا أمر تكرهه الملوك»

وقال له رجل آخر من العرب:

«إذن تحاربك العرب والعجم».

لقد فهم هذان الأعربيان أن كلمة لا اله الا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله.

وهؤلاء الأباطرة يفسدون فطر شعوبهم ويحولون بينهم وبين شرع الله وهنا يكون العقاب ويكون الجزاء وينزل على هذا الكوكب ما يطلق عليه بالكوارث الطبيعية.

وكتاب الله تعالى يكشف بوضوح تام عن العلاقة بين أعمال الناس وسنن الله في إنزال العقاب بهم، حيث لا يكون انفصال مطلقا بين أعمال خلقه وما ينزله عليهم من هذه الكوارث.

هذه العلاقة قد تخفى عن الغافلين الضالين في فترة من عمر الزمن – لان آثارها قد لا تبدو في المدى القريب ولكنها لا بد واقعة على المدى الطويل. قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الاعراف: ٩٦).

وقبل نزول الكوارث وحلول العقاب لا بد من الإنذار عن طريق التنبيه والارشاد مرة، وعن طريق التهديد والوعيد مرات قال تعالى:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (الاعراف: ٩٧-٩٩).

ثم يأتي العذاب، يأتي الخسف، تأتي الصواعق، يأتي التدمير الشامل. يأتي عذاب الخالق.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ (الطور: ٧-٨).

وهذا ما حدث من مصارع المكذبين السادرين الذين كانوا قبلنا عاقبهم الله بالهلاك والدمار.

مرة وهم بياتا نائمون.

والانسان في نومه مسلوب الارادة، مسلوب القوة، لا يملك أن يحتاط ولا يملك أن يدفع عادية من حشرة صغيرة فكيف ببأس الله الجبار..؟

ومرة وهم ضحى يلعبون.

واللعب يستغرق اليقظة والتحفز، ويلهي عن الأهبة والاحتياط فلا يملك الانسان وهو مستغرق في لعبه أن يدفع عن نفسه مغيراً فكيف بغارة الله التي لا يقف لها الانسان وهو في أشد ساعات جده وتأهبه للدفاع.

وهي ليست غارة واحدة ولكنها غارات متتابعة، وصواعق متتالية، وتدمير لا يبقي ولا يذر.

وهذا العذاب الذي حل ببعضهم نتيجة لظلمهم، والشرك هو أقبح الظلم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

والذين يشركون مع الله غيره يظلمون أنفسهم، ويظلمون خالقهم ويوردون موارد التهلكة في الدنيا والآخرة.

ويظلمون الناس باخراجهم من العبودية لله الواحد الى العبودية للطواغيت المتعددة، والارباب المتفرقة، وليس بعد ذلك من ظلم. ومن ثم فالكفر هو الظلم، والكافرون هم الظالمون.

ولقد ظلم قوم هود.

وظلم قوم صالح.

وظلم قوم لوط.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: ١٤).

لقد قال لوط عليه السلام لقومه:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الاعراف: ٨٠-٨٤).

يا عجباً لا ينتهى من مقولة هؤلاء القوم..؟؟

أو من يتطهر يطرد من بيته وينفى من بلده، ويخرج منها اخراجا ليبقى فيها الملوثون والمدنسون..؟؟

هكذا طلب الطغاة من قوم لوط. وهكذا يفعل كل قوم عندما تفسد فطرهم بالبعد عن توحيد الواحد الأحد الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى.

إنه الانحراف عن هدى الله تعالى واتباع وحي الشياطين.

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الانعام: ١١٢).

لقد أرسل الله لهم رسولًا قال لهم: أنتم بما تفعلونه مسرفون على أنفسكم ومسرفون في البعد عن هدى ربكم ومسرفون بهذا الضلال البعيد.

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١).

وطلبوا من طواغيتهم اخراج لوط وقومه من مدينتهم.

عندها كان العقاب عندما لم تنفع النذر ولم تجد أساليب الهداية.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٢-٨٣).

لقد تم انقلاب المدينة ولكن كيف تم الانقلاب..؟
وما نوع الحجارة التي ألقيت عليها بعد ذلك..؟
ولماذا كانت منضودة متراكمة بعضها فوق بعض..؟
أتمّ ذلك عن طريق أحد البراكين التي أعدت لهذا الغرض..؟
أتمّ ذلك عن طريق الزلازل التي يتبعها الخسف والرجف..؟
أتمّ ذلك عن طريق الصواعق والعواصف الهوج..؟
ان صاحب الظلال يقول:

«إن هذه النازلة التي أصابت قوم لوط هي أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل، وعند ربك للظالمين كثير.

ولا نقول هذا الكلام لنقول: إنه كان بركان من تلك البراكين ثار في ذلك الوقت فوقع ما وقع، اننا ننفي هذا فقد يكون هو الذي وقع فعلاً ولكننا لا نجزم به كذلك ولا نقيد قدر الله بظاهرة واحدة مألوفة.

وقوام القول في هذه القضية وأمثالها أنه جائز أن يكون في تقدير الله وقوع انفجار بركاني في موعده في هذا الموعد ليتحقق قدر الله في قوم لوط كما قدر في علمه القديم. وهذا التوقيت والتوافق شأن من شؤون ألوهيته سبحانه وربوبيته للكون وتعريفه لكل ما جرى فيه متناسقا مع قدره بكل شيء وكل حي فيه»[1].

لقد عاقب الله سبحانه وتعالى قوم لوط - بما نسميه الآن بالكوارث الطبيعية لانهم فسقوا عن شرع الله، وجعلوا فطرهم مقلوبة هابطة مرتكسة من قمة الانسان الى درك الحيوان ولعل الحيوان يكون ملتزماً بحدود فطرته.

فماذا نحن منتظرون من العقاب في هذا القرن العشرين ومجتمعات

(١) راجع في ظلال القرآن ٤: ١٩١٥.

كثيرة هابطة في حمأة التعفن والرذيلة.

ان أجهزة بعض الدول الإعلامية تدعي أن انتشار الشذوذ الجنسي بين مجتمعاتها سببه أحتجاب المرأة، سببه التزام بعض النساء بالحجاب الذي أمر به الله تعالى بقوله:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ (الاحزاب: ٥٩).

وقوله أيضا:

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

فماذا هم قائلون في دول الغرب ومجتمعاته التي تعرت فيه المرأة بالكامل ومع ذلك فهذا الشذوذ لديها قائم وليس بقاعد؟

ولا يقتصر الشذوذ بين الرجال عندهم بل تعداه الى الشذوذ بين النساء. ومن لا يصدق ما نقول ويعتبره افتراء وافكاً على هذه الدول الطاهرة النظيفة - في رأيه - فعليه أن يقرأ ما كتبه العالم الامريكي «كنزى» في كتابه: «السلوك الجنسي عند الرجال» و«السلوك الجنسي عند النساء» ويقرأ ايضا كتاب القوانين الجنسية، وتقرير دائرة المعارف البريطانية عن المجتمع الامريكي. وتقرير الطبيب الفرنسي «ليريد» عن المجتمع الفرنسي[١].

نقول ذلك لأن أصحاب هذه الابواق الفجة لا زالت تردد ما تقوله «بروتوكولات» صهيون: من أن حجاب المرأة هو السبب. ثم ماذا..؟

---

(١) واجع المذاهب المعاصرة وموقف الاسلام منها. عند حديثنا عن مخالفة الفطرة والخروج على شرع الله ص. ٧٧-٧٨ عبد الرحمن عميرة.

لقد طالب قوم لوط: باخراج المتطهرين من مدينتهم، حدث هذا في الزمن الغابر. ولا زلنا نسمع بأن الشاذين والشاذات والمنحرفين والمنحرفات يطالبون بعزل المتطهرين والمتطهرات عن مجتمعاتهم، ولا يكتفون بذلك بل يطاردونهم في أرزاقهم ويصادرون أفكارهم ويلصقون بهم أبشع التهم ويروجون عنهم أحط الأقاويل.

إن الفتاة المسلمة التي لا تكشف عن وجهها وجسدها، والفتى المسلم الذي يستقذر اللحم الرخيص تتقول عليهم الابواق الموجهة.

«بأنهم الرجعيون المتخلفون، الجامدون، الريفيون».

ومثل ذلك يتقولونه عن الشباب الذين تكون لهم اهتمامات بأموز دينهم وقضايا أوطانهم لانهم لا يشاركون العابثين والعابثات جنون الأفلام الداعرة والمسلسلات الهابطة والحفلات الراقصة.

فهل إذا قذفت البراكين بالحمم الملتهبة وغطت مدناً كاملة..

وجاءت الزلازل بالخسف والنسف لبعض البلاد.

وماجت البحار وهاجت المحيطات فأغرقت الاخضر واليابس.

وانتشرت أمراض «الزهري» و«السيلان» و«الايدز».

وصب علينا العذاب صباً من كل جانب.

وحل الجفاف ببلاد كاملة، ودول كانت عامرة.

نقول: إن حدث هذا يكون من الكوارث الطبيعية التي لا شأن لها بسلوكيات الناس وأخلاقهم ولا بتمسكهم بالدين أو بعدهم عنه...؟

ونقول: ودليلنا على ذلك أن المنحرفين والمنحرفات، والهابطين والهابطات وأدعياء الألوهية المزيفة، والخارجين على شرع الله لم يصبهم شيء من ذلك..؟

أم أننا نقول ونؤكد أن ما حدث هو من عند الله تعالى عقابا للبشرية لانحرافها عن هدى الله تعالى وبعدها عن سنة الرسول الكريم وعدم آدائها

لدور الخلافة التي أناطها الله بها. ودليلنا قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (الانفال: ٢٥).

إن الجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره ولا تقف في وجه الظالمين لا تأخذ الطريق على المفسدين جماعة تستحق أن تأخذ بجريرة الظالمين المفسدين.

والاسلام لا يسمح أن يقعد القاعدون عن مجابهة الظلم والفساد، ويرون المنكر يشيع، ودين الله لا يتبع، وألوهيته تنكر، وتقوم ألوهية العبيد مقامها وهم ساكتون. ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من عقابه أو أن يستثنيهم من بلائه، لأنهم في ذاتهم صالحون طيبون.

روى الامام الترمذي في صحيحه:

«إن الناس اذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[١].

وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير - عن النبي - ﷺ قال:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذِ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»[٢].

وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله - ﷺ - فقالت له:

«يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون..؟

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الملاحم ١٧ والترمذي في الفتن ٨ وابن ماجه في الفتن ٢٠ واحمد بن حنبل في المسند ١: ٢، ٥، ٧ (حلبي).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الشركة ٦ واحمد بن حنبل في المسند ٤: ٢٦٩.

قال: نعم. إذا كثر الخبث[1].

وهذا الحديث يدل دلالة قاطعة على تعذيب العامة وارسال البلاء عليهم من الزلازل والبراكين بذنوب الخاصة، وفيه استحقاق العقوبة إذا أهملت الامة، دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذه الدعوة التي جعلها الله تعالى أساساً لخيرية الأمة بقوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فإذا عطلت الأمة هذه الدعوة. سقطت عنها الخيرية بالكامل.

قال العلماء:

فالمعصية إذا شاعت وعمت هلك الكل إذا لم تجد الذي يعمل على تغييرها وازالتها. وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها.

كما كان الحكم فيمن قبلنا من الأمم كما في قصة أصحاب السبت حين هجروا العاصين وقالوا لهم لا نساكنكم المدنية.

وروى ابن وهب عن مالك - رضي الله عنه - أنه قال:

«تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر فيها، واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها».

وروى البخاري عن أبن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ:

«إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»[2].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المناقب ٢٥.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٩ ومسلم في الجنة ٨٤ واحمد بن حنبل في =

فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طهرة للمؤمنين ومنه ما يكون نقمة للفاسقين.

وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أضطرب رسول الله - ﷺ - في منامه فقالت:

«يا رسول الله صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله..؟

فقال: العجب: إن ناساً من أمتي يؤمون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم.

فقلنا: يا رسول الله إن الطريق قد يجمع الناس.

قال: نعم. فيهم المستبصر - القاصد لذلك عمداً - والمجبور، وابن السبيل يهلكون مهلكا واحداً، ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله تعالى على نياتهم»[1].

ونقول: صدق رسول الله - ﷺ - الذي لا ينطق عن الهوى ولكن كيف نوفق بين هذا الحديث وبين قوله تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الانعام: ١٦٤ والاسراء: ١٥ وفاطر: ١٨).

وقوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

وقوله أيضا:

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

نعم: لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة باثمها، والوزر: الذنب قال تعالى:

=المسند ٢: ٤٠.

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في الفتن ٨ والبخاري في الصوم ٦ والترمذي في الفتن ١٠.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ (الانعام: ٣١).

والمراد بهذه الايات في الآخرة، كل نفس حاملة حملها، فلا تحمل نفس حمل أخرى، وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئا من أعبائها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤-٣٧).

ولكن الناس في الدنيا إذا تظاهروا بالمنكر فيجب على كل من رآه أن يغيره، فاذا سكت على ذلك فكلهم عاص. هذا بفعله، وهذا برضاه.

وقد جعل الله تعالى في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل، فانتظم في العقوبة[1].

وصدق ربي في قوله:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (الانفال: ٢٥).

وإذا كان ذلك كذلك فيطيب لنا أن نقدم بين يدي القارئ نماذج من عقاب الله تعالى للخارجين عن شرعه المكذبين لرسله.

أ- ﴿ريحٌ فيها عَذابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها﴾

قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الى قوله تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الاحقاف: ٢١-٢٥).

لقد كانت دعوة هود عليه السلام لقومه: عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان والاصنام والكواكب والنجوم، والشمس والقمر، والجن

---

(١) راجع تفسير القرطبى ٧: ٣٩٣.

والملائكة ولم يسألهم عن هدايتهم أجراً ولم يطلب من أحد منهم عونا. فقط:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الاعراف: ٦٥).

وعبادة الله تعالى ليست كلمات تقال، أو ركعات تؤدى لا روح فيها أو زكاة تؤدى يراد بها الفخر والمباهاة، ولكن عبادة الله تعالى التزام واتباع.

التزام بكل ما جاء من شرع الله خالصاً لله تعالى.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الانعام: ١٦٢).

واتباع للرسول - في كل ما أمر به أو نهى عنه.

ولكن قوم هود صموا آذانهم عن هذه الدعوة وعتوا في الارض واستكبروا استكباراً وقالوا: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فصلت: ١٥).

استكبروا بقصورهم الفارهة العالية.

واستكبروا بحدائقهم الناضرة المثمرة.

واستكبروا بمزارعهم المبسوطة والتي لا تحصى بالعد ولا تدرك بالبصر.

وقالوا: يا هود إن كنت تريد أن تعيش معنا آمنا فلا تنال من آلهتنا المصنوعة، وأصنامنا المرفوعة، ولا تحاول أن تشغلنا بالاهك عن دنيانا الحلوة النضرة. فعاجهلم الله بالعقوبة. ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الاحقاف: ٢٤).

وعندها قال الله لهم رداً على كلمتهم السابقة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فصلت: ١٥).

وهذه الريح رأوها قبل أن تحل بديارهم فكانت موضع آمالهم ومطمع رغباتهم وأمنياتهم التي تمنوا حتى قال قائلهم:

﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ (الأحقاف: ٢٤).

أي أن هذه الريح التي رأوها من بعد ستأتيهم بالمطر الكثير والخير الوفير الذي ينتظرونه. والريح كذلك، ولكن هذه الريح لن تأتيهم بالخير ولن تهطل عليهم بالمطر ولن تنبت لهم الزرع. لانها ريح مأمورة من الله تعالى بتدميرهم فهي محملة بالعذاب والهلاك. قال تعالى:

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الاحقاف: ٢٥).

وهذه الآية الكريمة تصور الرياح بأنها حية مدركة مأمورة بالتدمير، تدمير كل شيء بأمر ربها.

وهذه حقيقة كونية يقدمها القرآن الكريم للنفوس البشرية حتى تعي أن هذا الوجود حي، وكل قوة من قواه واعية مدركة. فهي جند من جنود الله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١).

وهذه الجنود تتوجه لما تكلفت به من لدنه تعالى.

والانسان في هذا الوجود أحد هذه القوى، وحين يؤمن بها حق الايمان ويفتح قلبه للمعرفة الآلهية، يستطيع أن يعي عما في الكون من حوله وأن يتجاوب معها، وبالتالي تتجاوب هي معه.

ففي كل شيء روح وحياة.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الاسراء: ٤٤).

لا نفقه تسبيحهم لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار، والتي تراها وتدركها البصائر المفتوحة لا الأبصار قال تعالى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

فالريح إذن قوة من قوى هذا الكون، وجند من جنود الله يرسلها في

إطار مشيئته وناموسه في صورة ما من صورها في الوقت المقدر على من يريد بالهلاك والدمار أو بالحياة والأحياء.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -:

أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والارض مثل الريش قد خلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمر الله تعالى الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ولهم فيها أنين.

ثم ماذا..؟ أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فألقت بهم في البحر وهي التي قال الله تعالى عنها:

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

وقال شاعرهم يصف هذه الحالة المروعة بقوله:

فدعا هود عليهم ... دعوة أضحوا همودا

عصفت ريح عليهم ... تركت عادا خمودا

سخرت سبع ليال ... لم تدع في الارض عودا

ب- وَدَمَّرنا ما كانَ يَصْنَعْ فِرْعَوْنُ وَقَومُهْ وَما كانُوا يَعْرِشون

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا

غَٰفِلِينَ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٠-١٣٧).

إن صدر هذه الآية يشير الى الانذار والتنبيه: الانذار الى فرعون وقومه ليقلعوا عما هم فيه ويعودوا الى رشدهم.

وهذا الانذار يتمثل في حلول الجدب بالأرض، ونقص الثمرات والزرع، ويحدث هذا في أرض مصر المخصبة المثمرة.

وأراد الله سبحانه وتعالى بذلك أن يلفت نظرهم ويثير قلقهم لهذا النقص وحلول الجدب. وخصوصا أن مصر معروفة بكثرة أنهارها ووفرة مياهها - كما قال فرعون:

﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ (الزخرف: ٥١).

ووجود الأنهار، ووفرة المياه مدعاة للنماء والكثرة لا النقص والقحط. ولكن فرعون وقومه لا يريدون أن يتدبروا هذه الظاهرة الجديدة على حياتهم ولم يسائلوا أنفسهم أو يسألوا غيرهم لماذا حدث هذا..؟

ولا يريدون أن يفتحوا بصائرهم لترى يد الله تعالى وقدرته التي أوجدت الخصب والنماء هي التي تعمل في نقص الثمرات وإجداب الأرض.

والسبب في ذلك أن الخالق المبدع جعل ما حل بهم من قحط ونقص في الثمرات والأنفس والأموال نتيجة لكفرهم وفسقهم عن شرع الله وبغيهم وظلمهم على عباد الله تعالى.

ولكن كيف أطاعت الجماهير هذا الاله المزيف. واستمرت في خضوعها له..؟

وهم يعلمون أن الخالق المبدع الذي أرسل رسوله موسى هو الذي يعطي ويمنع ويحيي ويميت بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

يعلمون ذلك لأنه كلما حل بهم البلاء، وأرسل الله عليهم العقاب هرعوا الى موسى قائلين:

﴿يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ (الاعراف: ١٣٤).

فهم يعلمون أن اله موسى هو القادر على رفع البلاء وليس فرعون والا لما طلبوا منه ذلك.

ونقول فعلوا ذلك لانهم عبيد والجماهير المستعبدة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها الملموس بأيديها ولذلك قال الله تعالى:

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤).

ولا يملك الطاغية أن يخدع الجماهير الا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ولا يتمسكون بحبل الله. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بعواطفهم وعقولهم.

وعندما وصل الأمر الى هذا تدخلت قدرة الله تعالى بوسائلها الجبارة التي لا تبقي ولا تذر. قال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

جاءهم الطوفان فغطّى أرضهم واكتسح أمامه الأخضر واليابس، وحبسهم في منازلهم. فقالوا: يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك.

فطلب موسى من ربه فكشف عنهم البلاء وأزال عنهم الغمة، ولكنهم لم يؤمنوا وعادوا الى ضلالهم.

فبعث الله عليهم الجراد فأكل مزارعهم، وغطى طرقاتهم، وأزعج مواشيهم وكاد أن يكتم أنفاسهم.

فهرعوا الى موسى أن يدعو ربه ليكشف ما هم فيه ويؤمنوا به.

واستجاب موسى لطلبهم واستجاب له ربه، وخلت أرضهم وديارهم منه، ولكنهم لم يؤمنوا.

فأرسل الله عليهم القمل - فسوَّس حنطتهم وأفسد حبوبهم، وأتلف خزائنهم وهكذا كلما نزل عليهم بلاء طلبوا من موسى أن يدعو لهم ربه - ولكن موسى عليه السلام ضاق ذرعا بكفرهم وآلمه عصيانهم وترددهم، عندها طلب من ربه أن يعاجلهم بالعقوبة، وأن يصب عليهم العذاب صباً قائلًا:

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨).

واستجاب ربه لدعوته ودعوة أخيه هارون قائلا:

﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ (يونس: ٨٩).

ثم أخذه الله تعالى وقومه أخذ عزيز مقتدر قال:

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (الأعراف: ١٣٦).

أطبق عليهم البحر فكانوا من المغرقين.

وهاجمهم الموج بعنفوان فكانوا من الهالكين.

ولم يقف الأمر عند هلاك فرعون وقومه، واغراقه وحزبه، ولكن تعدى ذلك الى أملاكهم التليدة، وقصورهم الفريدة، وأرضهم الواسعة، وجناتهم العالية، وأنهارهم الجارية. قال تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ (الدخان: ٢٥-٢٧).

فأطبقت عليها يد القدرة القادرة فأصبحت خبراً بعد عين.

قال تعالى:

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾

(الأعراف: ١٣٧).

وبعد أن تطهرت الأرض من أوزارهم، ونقت التربة من آثامهم، أنبت الله فيها زراعات جديدة، وتفجرت من خلالها عيون فريدة * أورثها الله تعالى للصاحلين الأوابين من خلقه قال تعالى:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: ١٣٧).

ثم ماذا..؟ نستطيع أن نؤكد أن الكوارث الطبيعية من تدمير وخسف، وزلازل وصواعق، ورياح وبراكين هي من عند الله تعالى يرسلها على من يشاء من عباده عند ما يتطاولون بطغيانهم ويتعاظمون بصولجانهم، ويدعون أنهم أرباب يعطون ويمنعون، ويحيون ويميتون، ويتجاهلون قدرة الله تعالى ونعمه عليهم كما حدث مع قارون الذي أدعى أن ما فيه من ثروة وجاه وعز وسلطان حازها بعلمه وحنكته، وجمعها بعقله وحجاه، وتجاهل فضل الله عليه. قال تعالى:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١).

كوكب الأرض

التكوين والنشأة بين الحقيقة والافتراض

متى نشأت الأرض. .؟ وفي أي عصور ساحقة حدث هذا. .؟ وكيف تكونت. .؟ ومن أي المواد صنع جرم الأرض. .؟

لقد حاول رجال الدين وبعض الفلاسفة قديما أن يقدموا بعض التفسيرات لنشوء الأرض وعوامل تكوينها.

من ذلك ما قاله رجال الدين الهندوسي من تفسير لنشأة الكون تبعا لما جاء في كتابهم (المانوسيمتري) والذي تم جمعه في القرن الثاني قبل الميلاد وقد جاء في هذا الكتاب أن عمر كوكب الأرض يبلغ نحو ٢ بليون سنة.

وحدد الكاهن (جيمس أوشر) في القرن الرابع عشر الميلادي أن هذا الكوكب خلقه الله عام ٤٠٤٤ قبل الميلاد.

وكان للفلاسفة الأغريق رأيهم في تفسير نشأة كوكب الأرض فبعضهم اعتقد أن هذا العالم تكون من تفاعل عناصر مختلفة مع بعضها البعض وأهم هذه العناصر النار، والماء، والتراب، والهواء.

وكان من رأي (أفلاطون) بأن نشأة كوكب الأرض وبقية كواكب المجموعة الشمسية تعزى إما الى أثر عوامل طبيعية (ما) أو حدثت عن طريق المصادفة.

أما (أرسطو) فقد اعتقد بأن هذا الكون الشاسع لا بد وأن يكون قد نشأ أصلا من مادة كانت موجودة من قبل. ففي رأيه أنه لا يحدث من العدم وجود[١].

---

(١) راجع كوكب الأرض للدكتور حسن أبو العينين بتصرف، والكون بين العلم والدين =

وذكر أيضاً: أن الأرض كروية الشكل ومثبتة في مركز الكون، وأن الكواكب السيارة تدور حول الأرض.

واستمر الوضع على ذلك حتى كان التقدم التدريجي في علوم الفلك فانتشرت أفكار العالم الفلكي (نيكولاس كوبر نيكوس). وقد أكد هذا العالم بأن الشمس هي النجم العظيم الحجم وأكبر أفراد المجموعة الشمسية.

ثم اتسعت المعرفة عن الكون والكواكب بعد أن اكتشف (جاليلو) جهاز المنظار الفلكي المقرب عام ١٦٠٩م.

ومنذ بداية القرن الثامن عشر تبارى العلماء في وضع النظريات الكثيرة عن نشأة الأرض، ولا نستطيع في هذا البحث المحدود أن نتكلم على كل النظريات التي أخرجتها عقول العلماء ولكن يكفي أن نشير اليها ونقف عند البعض منها بالبسط والتحليل، فمن النظريات القديمة:

(١) نظرية الفيلسوف الروسي (كانت) ١٧٥٥م. وبها فسر أن المجموعة الشمسية كانت في أول الأمر أجساما صلبة معتمة سابحة في فضاء الكون ثم تحولت الى سديم متوهج يدور حول نفسه، وفي النهاية انفصلت أجزاء السديم وكونت مجموعة الكواكب التي تدور حول الشمس.

(٢) نظرية (لابلاس) أو النظرية السديمية

وقد تقدم بها العالم الفرنسي في عام ١٧٩٦م. ونظراً لبساطتها وانطباقها على كثير من مظاهر المجموعة الشمسية فقد راجت وأخذ بها كثير من العلماء نحو قرن من الزمان وان كان قد وجه لها العديد من الاعتراضات لأن (لابلاس) لم يتعرض مطلقا لأصل المادة التي تكوّن منها السديم، كما لم يتعرض للأسباب التي أدت الى دوران السديم حول نفسه.

=للدكتور محمد جمال الدين الفندي.

(٣) نظرية (لوكير) وتسمى بنظرية النيازك.

وقد أدلى بها العالم الفلكي (لوكير) كي يكمل وجوه النقص التي بدأت في نظرية (لابلاس) حيث نصت على المادة التي تكوّن منها السديم قبل أن يتحول الى المجموعة الشمسية كما نصت على العامل الذي أدى الى حركة السديم(١).

وأما النظريات الحديثة فهي:-

(١) نظرية (تشمبرلين ومولتن).

تقدم بها العالمان الامريكيان (تشمبرلين ومولتن) واطلقا عليها اسم نظرية الكويكبات أو نظرية الأجرام الصغيرة. وملخص هذه النظرية: أن الأرض تكونت من كتلة غازية انفصلت عن الشمس لأن نجما من النجوم اقترب منها وهو سابح في فضاء الكون فجذب نحوه جزءاً من جسمها واستطاع أن يفصله عنها. وقد ساعد على ذلك أن جسم الشمس أصابه انفجار فتناثرت منه عدة كتل، كانت الأرض واحدة منها.

(٢) نظرية المد الغازي:

تقدم بهذه النظرية العالمان (جفريز وجينز) وتفيد أن عموداً غازياً انفصل عن الشمس وتكوّن منه عشرة أجزاء تسعة منها هي الكواكب السيارة والعاشر مجموعة الكويكبات التي تقع بين المريخ والمشتري.

(٣) أما العالم الكيميائي (هارولد أوري) فقد أوضح أن أفراد المجموعة الشمسية كانت عبارة عن سحب غازية تنتشر فيها المواد الصلبة الدقيقة الحجم وكانت تحيط بالشمس الأصلية على شكل قرص غازي مستدير الشكل، واعتقد (أوري) أن جسم الشمس تعرض للتفتيت والتقسيم وتباعدت الكتل الغازية عن بعضها، وتبعا للخصائص العامة للمواقع الجديدة التي احتلتها الكتل في الفضاء الكوني تعرضت لعمليات

---

(١) راجع الجغرافيا الطبيعية ١: ٣٠، ٣١ للدكتور يوسف الأنصاري.

البرودة التدريجية وتكونت كواكب المجموعة الشمسية.

ويذكر (أوري) أن أهم المواد التي تدخل في تركيب هذه الكتل الغازية هي (السليكات) والحديد، والمياه، والنشادر.

وتبعاً لعمليات البرودة التدريجية تكاثفت المياه، وغاز النشادر بينما تألف مركز هذه الكتل من النيكل والحديد، والمواد التي لا زالت منصهرة حتى اليوم كما هو الحال بالنسبة لكوكب الأرض[1].

واذا كان هذا بالنسبة لكوكب الأرض والملابسات التي حدثت في تكوينه ونشأته. فيطيب لنا أن نلقي بعض الأضواء على المجموعة الشمسية.

ما هي..؟ ومن أي الكواكب تتكون..؟

---

(١) راجع كوكب الأرض للدكتور حسن أبو العينين، ووجه الأرض للدكتور محمد متولي موسى، والجغرافيا الطبيعية للدكتور / يوسف الأنصاري ١/ ٣٢، ٣٣، ٣٤.

المجموعة الشمسية: النشأة والتكوين

تتكوّن المجموعة الشمسية - كما قرر علماء الفلك - من مجموعات ثلاث: -

الأولى: الشمس.

الثانية: الكواكب السيارة.

الثالثة: النيازك والشهب، ويطيب لنا أن نلقي بعض الأضواء على كل منها.

(١) الشمس

هي أكبر الأجرام السماوية كلها وهي مركز المجموعة الشمسية وهي المسئولة عن حركة جميع الكواكب، كما أنها المسئولة عن بقاء كل كوكب في موضعه وهي المصدر الهام الرئيسي لضوء وحرارة كل أفراد المجموعة الشمسية.

والشمس تبعد عن الأرض في المتوسط بنحو ٩٣ مليون ميل وتظهر على سطحها أحياناً بقع تنتقل من جانب الى جانب آخر على السطح تبعا لدورة الشمس حول نفسها والتي تستغرق حوالى ٢٦ يوما. والشمس: هي مصدر الضوء والحرارة للأرض وترسل أشعتها سواء أكانت تلك الأشعة ضوئية أو حرارية أو كيميائية حيوية، ولكل نوع منها أثره على سطح الأرض وما عليه من كائنات حية أو غير ذلك.

وليس من شك في أن العلاقة وطيدة بين الشمس والأرض مما لا يتسع له المجال.

(٢) الكواكب السيارة

وصل عدد الكواكب السيارة الى عشر وهي تدور حول الشمس وفي الوقت ذاته تدور حول نفسها. وبعض الكواكب السيارة قريب من الشمس كما هو الحال في الكوكب عطارد والبعض الآخر بعيد عن الشمس كما هو الحال في الكوكب (بلوتو) وأقرب الكواكب الى الشمس هو (عطارد) ثم يليه (الزهرة) وهي ألمع الأجرام بعد الشمس والقمر، وهي أكبر من (عطارد). ويلي (الزهرة) الأرض، وهي ليست قريبة الى حد كبير من الشمس مثل الكوكب عطارد كما أنها ليست بعيدة عن الشمس مثل الكوكب (بلوتو) وإنما هي في موقع متوسط بينها وبين الشمس مما كان له أكبر الأثر بينهما من علاقات وهي بدورها هذا تلعب دوراً خطيراً في الحياة على سطح الأرض.

ويلي ذلك المريخ، وهو أصغر من الأرض وله غلاف غازي قليل لا يستطيع أن يحتفظ بالحرارة الساقطة على سطحه ولذا فأغلب سطح المريخ تحت درجة التجمد. ويقول بعض العلماء: إن البرد عند منتصف الليل على خط استواء المريخ كالبرد عند القطب الشمالي للأرض، وليس هناك دليل قاطع على صحة ما زعمه بعض العلماء عن احتمال وجود حياة على المريخ أو على أي كوكب سيار (غير الأرض) في المجموعة الشمسية.

ويلي المريخ: الكويكبات وهذه يقدرها البعض بنحو ٤٣٠ كويكبا وأنها تبعد عن الشمس بمقدار يتراوح بين ١٩٣-٣٠٥ مليون ميل وأن حجمها بوجه عام صغير وكذا كتلتها، ويلي ذلك كوكب المشتري، وهو أكبر من الأرض بكثير بل ومن أي كوكب سيار آخر في المجموعة الشمسية، وهو يبعد عن الشمس بنحو ٤٨٣ مليون ميل وكتلته أكبر من كتلة الأرض بنحو ٣١٦ مرة وأن حجمه أكبر من حجم الأرض ١٣٨ مرة وأن له خمسة أقمار أو توابع ثم يلي المشتري الكوكب زحل. وهو يبعد

عن الشمس بنحو ٨٨٦ مليون ميلا وأن كتلته أكبر من كتلة الأرض بنحو ٩٥ مرة وأن له ثمانية أقمار أو توابع ثم يلي ذلك الكوكب (أورانوس) وهو يبعد عن الشمس بنحو ١٧٨٢ مليون ميل وكتلته أكبر من كتلة الأرض بنحو ١٤ مرة وأن حجمه أكبر من حجم الأرض بنحو ٦٦ مرة وأن عدد أقماره أو توابعه أربع.

ثم يلي ذلك الكوكب (نبتون) الذي يبعد عن الشمس بنحو ٢٧٩٢ مليون ميل وأن كتلته أكبر من كتلة الأرض ١٧ مرة وأن حجمه أكبر من حجم الأرض بنحو ٧٢ مرة، وأن له قمراً واحداً.

ثم يلي ذلك الكوكب (بلوتو) وهو أصغر الكواكب السيارة وأبعدها عن الشمس كما أنه أحدثها اكتشافا ويقدر البعض أن هذا الكوكب (بلوتو) يبعد عن الشمس بمقدار ٣٧٠٠ مليون ميل أي ما يعادل قدراً يزيد عن بعض الأرض عن الشمس بنحو ٤٠ مرة[١].

(٣) النيازك والمذنبات

النيازك والشهب أجسام كونية آتية من الفضاء الخارجي ولا يمكن رؤيتها إلا عندما تدخل نطاق الجاذبية الأرضية حيث تندفع بقوة نحو سطح الأرض ويؤدي احتكاكها بالغلاف الغازي الى احتراقها. غير أن النيازك أكبر حجماً من الشهب ولذا لا تحترق مواد النيازك كلية أثناء اختراقها طبقات الغلاف الغازي.

وتسبح الشهب في الفضاء الكوني بسرعة فائقة إلا أنها تختلف فيما بينها من حيث اتجاه مسالكها وتتراوح سرعة سقوط الشهب نحو سطح الأرض بين ٢٠، ٤٠ ميلًا في الدقيقة وينتج عن احتكاكها بالغلاف الغازي تحويل كل المواد المكوّنة لها أو التي تصطدم بها الى أبخرة وغازات.

(١) راجع كوكب الأرض للدكتور حسن أبو العينين، والجغرافيا الطبيعية للدكتور يوسف الأنصاري.

وقد اختلف العلماء في نشأة الشهب فيرى البعض أنها تمثل بقايا متناثرة من المجموعة الشمسية ثم اخذت تتفتت وتتساقط على سطح الأرض في حين يرى البعض الآخر أن الشهب تمثل بقايا مواد كونية مفتتة آتية من فضاء خارجي غير الذي نعرفه وتقع فيه المجموعة الشنمسية.

أما المذنبات: فإنها تبدو من خلال أجهزة الرصد الفلكية الدقيقة المراقبة في شكل بقع سديمية مضيئة ويعظم توهجها في منطقة رؤوسها كما تمتد من أجسامها ذيول منيرة في الفضاء، وتدور المذنبات حول الشمس في مدارات مختلفة وبسرعة هائلة.

وقد تستغرق بعض المذنبات في دورتها حول الشمس نحو ٧٦ عاما كما هي الحال في مجموعات مذنبات هالي.

ويذكر البعض أن مجموعة المذنبات تنتمي الى فضاء خارجي غير ذلك الذي تنتمي اليه المجموعة الشمسية ذلك بأن طبيعة دوران هذه المذنبات تختلف تماما عن طبيعة دوران أفراد المجموعة الشمسية[١].

ثم ماذا..؟ ما موقف العلماء من هذه النظريات والمعلومات التي تحتويها..؟ أتراها تصل الى درجة اليقين..؟ أم أنها لا زالت في مرحلة الافتراض..؟

---

(١) المرجع: الجغرافيا الطبيعية للدكتور يوسف الأنصاري، ص ١٢-١٨، بتصرف ويراجع كتاب الفلك العام للدكتور عبد الحميد سماحة وآخرين، الباب العاشر النجوم في مسالكها. وكوكب الأرض للدكتور /حسن أبو العينين.

نظريات نشأة المجموعة الشمسية

بين القبول والرفض

يقول الدكتور أبو العينين:

«وعلى الرغم من تعدد الآراء والنظريات التي قدمت منذ بداية هذا القرن لتفسير نشأة المجموعة الشمسية، إلا أنه كما يذكر الاستاذ (سمارت): بأننا ربما سوف لا نعلم الطريقة الحقيقية التي تكونت.بها كواكب هذه المجموعة وكيف جاءت الى الوجود»[١].

ويقول العالم (هارولد أوري)[٢]. عام ١٩٥٢م. إنه عندما يتعرض الباحث لمشكلة نشأة الأرض وتفسير ميلادها يجد نفسه في حاجة ماسة الى معجزات الهية تساهم معه في هذا التفسير مهما كانت دقة المناهج العلمية التي يستعين بها.

ويرى (هويل) أن جميع الأجرام السماوية جزء من الكون الذي يتسع باستمرار ومنها مجموعتنا الشمسية بنجمها الكبير الذي يتوسطها وكواكبها وأقمارها التي تدور في فلكه.

وبناء على ذلك فان (هويل) لا يرى بداية حقيقية لهذا الكون كما لا يرى له نهاية يقف عندها.

قال (هويل) ذلك بعد أن أعمل عقله عشرات المرات ولكنه لم يصل معه الى الرأي الأمثل، أو النتيجة اليقينية[٣].

---

(١) راجع كوكب الأرض للدكتور حسن سيد احمد أبو العينين، ص ٧٥.

(٢) حاز العالم الكيميائي هارولد أوري على جائزة نوبل في علم الكيمياء عام ١٩٥٣م.

(٣) راجع وجه الأرض للدكتور محمد متولي، ص ٢٤.

ومن هذا المنطلق نرى أن الفيلسوف (برجسون) يقول عن العقل:

«إن العقل يتصف بعجز طبيعي عن فهم ما وراء الطبيعة. وصاحب المذهب التجريبي يقول أيضا:

«غاية المعرفة الانسانية هي تحصيل علل الظواهر الطبيعية وترتيب آثارها في دائرة قليلة من العلل العامة، أما محاولة كشف علل أخرى لهذه العلل العامة أو كشف علة واحدة مشتركة لها فهي محاولة غير مجدية من الطريق الانساني أي لا يصل اليها الانسان وصولا عمليا يقينيا».

ويتضح من ذلك أن النتائج التي توصل اليها العلماء عن نشأة كوكب الأرض أو المجموعة الشمسية تكاد لا تصل الى درجة اليقين في مجموعها، لأن العلم المتطور لا يعرف الكلمة الأخيرة، وخصوصا فيما يتصل بحقائق الكون، وصدق ربي في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأسراء: ٨٥).

ولقد استعرضنا فيما سبق بعض أقوال رجال الدين، وتصورات رجال الفلسفة في القديم عن نشأة الأرض، ثم تتبعنا النظريات والافتراضات الحديثة عند علماء الفلك، وهي متشعبة ومتباينة عند العلماء، وان كان البعض منها تتحد نتائجه. ولهذا يطيب لنا أن نقدم بعض هذه الآراء في نشأة المجموعة الشمسية والتي نرى فيها تقارباً بينها وبين ما توصل اليه علماء المسلمين، الذين قعدوا القواعد وأصّلوا الأصول لهذه النشأة، وكان رائدهم في ذلك آيات الكتاب العزيز عن الكون وما فيه من أرض وكواكب وسماوات.

مراحل نشأة الكون

قرر علماء الفلك أن اللبنة الأولى في بناء هذا الكون اللامحدود تكاد تكون من عنصر (الايدروجين) وذرته هي أبسط وأقل أنواع الذرات، لأنها تتكوّن من نواة واحدة وكويكب (الكترون) يدور حول النواة.

والنواة: كهرباء موجبة، والكويكب كهرباء سالبة، وذرة الايدروجين متناهية في الصغر لدرجة أن بضعة ملايين منها لا تبلغ حجم رأس الدبوس. هذه الذرات خلقها الله سبحانه وتعالى وبثها في الفضاء الشاسع المترامي الأطراف الذي لا يكاد يتناهى، ثم اودع في هذه الذرات خاصية التجاذب والترابط (قانون الجاذبية) فتجاذبت هذه الذرات حتى أصبحت كتلة ضخمة من السديم وكل ذراتها تندفع نحو مركز هذه الكتلة العظيمة بقوة الجاذبية، فتصادمت وارتفعت درجة حرارتها ارتفاعاً كبيراً حول بعض هذه الذرات الى عنصر (الهيليوم) وهو يلي (الايدروجين) لأن نواته مزدوجة، ولأن لكل نواة (كويكبين) يدوران حولها.

وهذه الكتلة الضخمة من السديم هي التي اطلق عليها القرآن الكريم اسم (الدخان) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).

ولما ارتفعت درجة الحرارة دار السديم حول نفسه في حركة رحوية سريعة فبدأت أطرافه تنفصل منه مندفعة في الفضاء وهذه الظاهرة هي: ما يسميها القرآن الكريم بعملية الفتق في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وهذه الأجزاء المنفصلة اندفعت بسرعة هائلة فوقعت بين قوتين: قوة الدفع وقوة الجذب فاحتفظت بموقعها في الفضاء بين القوتين المتعادلتين قوة الدفع وقوة الجذب والقرآن الكريم يسمّي هاتين القوتين (قوة الرجع - وهي الجاذبية - وقوة الصدع - وهي الدفع)، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ (الطارق: ١١، ١٢).

والعلماء يستغلون هاتين القوتين الآن في اطلاق الصواريخ، فعندما يطلقون صاروخا يدور حول الأرض. دفعوه بقوة تفوق جاذبية الأرض بمقدار محدود ثم تتناقص هذه الجاذبية حتى تتساوى وجاذبية الأرض على مدى مقدر، وحينئذ يقع الصاروخ بين قوتين متعادلتين هما قوة

الدفع وقوة الجذب فيأخذ مداره حول الأرض آليا دون محرك يدفعه. فاذا ألقى ركّاب الصاروخ منه شيئاً دار هو أيضا دون محرك، ولو خرج منه انسان وألقى بنفسه في الفضاء دار هو أيضاً في الفضاء ولهذا كان بعض ركّاب المركبات الفضائية الدائرة حول الأرض يغادرون المركبة بعد أن يربطوا أنفسهم بحبل يمكنهم من العودة إليها حيث يجدون فيها وسائل الراحة ومقومات الحياة.

وأما عن الأجزاء المنفصلة من كتلة السديم، وهي كتلة بالغة الحد في الضخامة فقد أخذت تدور حول الكتلة العظمى ثم تكررت فيها عملية الفتق آلاف المرات فنشأ عنها ما نسميه الآن بنظام المجرات، ثم انقسمت المجرات الى كتل ضخمة شديدة الانصهار تكونت منها الشموس التي يطلق عليها علماء الفلك اسم (النجوم) ومن الشموس انفصلت المذنبات والكواكب، ومن الكواكب انفصلت الأقمار، وكل منها يدور حول الأصل الذي انفصل منه بفعل قوة الجذب وقوة الدفع: أو الرجع والصدع.

ولقد انفصل كوكب الأرض من الشمس، حيث انشطرت كتلة من الشمس أو انصدعت منها، واندفعت في الفضاء، وحاولت الشمس ارجاعها اليها بقوة الجذب. ولكن قوة الطرد عادلت قوة الجذب، فأخذت الأرض مدارها حول الشمس في فلكها المرسوم، الذي تقطعه حول الشمس في مدى عام كامل. ثم انفصل القمر عن الأرض بقوة الصدع، وجذبته إليها بقوة الرجع، فدار حول الأرض في فلكه المرسوم الذي يقطعه في كل شهر قمري مرة[١].

واذا كان ذلك كذلك فيطيب لنا أن نتعرف على رأي العلماء في الأطوار التي مرت على تكوين الأرض - وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) يراجع في ملكوت السموات والأرض للاستاذ علي عبد العظيم، والعلم الحديث للدكتور عبد الله عبد الرحيم العبادي.

أطوار تكوين الأرض في رأي العلماء

يرى علماء الفلك أنه عندما انصدعت الأرض من الشمس دارت حولها بقوة الرجع في فلكها المرسوم. وكانت كتلة ملتهبة كالشمس التي انفصلت منها، وفي اثناء الأطوار السابقة للخلق تحولت ذرات (الايدروجين) الى ذرات (هيوم) ثم تعقدت الذرات وتعددت الكويكبات التي تدور فيها حول نوياتها فظهرت عناصر عديدة منها عنصر الأكسجين، والأزوت والكربون والحديد والنحاس والفضة والذهب.. ثم عنصر (اليورانيوم) الذي ازدوجت نواته ازدواجاً كبيراً. وبلغت الكويكبات التي تدور حولها اثنين وتسعين كويكباً وفصل أحد هذه الكويكبات من ذرة (اليورانيوم) هو أساس القنبلة الذرية.

ونقول كما تقرر في أبحاث العلماء: إن الأرض كانت ملتهبة، فاتحد فيها غاز الأكسجين بغاز الايدروجين فتكوّن منهما الماء الذي تبخر في سحب كثيفة هطلت منها أمطار غزيرة على الأرض الملتهبة فبرد سطحها وتقلص. وعندما تمت عملية التقلص ظهرت القارات. ثم انخفضت المحيطات، وأذاب الماء ما على سطح الأرض من املاح عديدة فأصبحت بعد برودتها وتخلصها من الاملاح صالحة للزراعة.

يقول العلماء: ثم تكونت السحب من بخار مياه المحيطات وهبطت منها أمطار عديدة من الماء العذب الذي كوّن الانهار، والغدران وينابيع الماء، وهنا ظهر النبات على سطح الكرة الارضية، وان كان باطنها ما زال منصهراً تظهر آثار انصهاره فيما يحدث من زلازل وبراكين.

ومن الزلازل والبراكين برزت الجبال. وكان الكوكب الأرضي يدور حول محوره بسرعة هائلة فكان مجموع الليل والنهار لا يتجاوز ست ساعات، وكانت هذه السرعة الهائلة تطرد في الفضاء كل ما تجمع حول الأرض من عناصر الهواء، وكانت الأرض تضطرب اضطراباً كبيراً تحت

هذه السرعة الكبيرة في دورانها[1]، حول محورها. فلما ظهرت الجبال كانت من عوامل تثبيت الأرض في دورانها وصدق الله العظيم في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٦، ٧).

وبعد ذلك ظهر فيها عالم الحيوان حيث بث الله فيها من كل دابة. قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ (لقمان: ١٠).

وكانت هذه الدواب تجد غذاءها فيما خلقه الله من عالم النبات. ثم ماذا..؟ تهيأت الظروف الملائمة لايجاد الانسان الذي سخر الله له ما في الأرض جميعاً وجعله خليفة له قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

واذا كان هذا ما يقوله علماء الفلك وعلماء الجيولوجيا بالنسبة للاطوار التي مرت على تكوين الأرض فماذا يقول فقهاء الدين في أطوار التكوين..؟

---

(١) يراجع العلم الحديث للدكتور عبد الله عبد الرحيم، وفي ملكوت السموات والأرض للأستاذ علي عبد العظيم والكون بين العلم والدين للدكتور محمد جمال الدين الفندي.

مراحل خلق السموات والأرض

في منهج القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم في كثير من آياته عن الكون الذي نعيش فيه وعن أطوار ومراحل تكوينه، ليفتح أمام الفكر الانساني مجال البحث والدراسة ليدرك عن طريقهما ما يستطيع ادراكه من قدرة الله وعظمته وابداعه العظيم في التكوين والتدبير. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (ق: ٣٨ واللغوب/ التعب والاعياء).

والقرآن الكريم حيث تحدث عن الأيام أو الاطوار الستة قد فصّل الحديث عنها تفصيلًا دقيقاً.

ولقد اجمل القرآن الكريم مراحل خلق السموات والارض وما بينهما في مرحلتين متابعتين:

المرحلة الأولى: مرحلة الرتق[١].

والمرحلة الثانية: مرحلة الفتق[٢].

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا

---

(١) الرتق السد، ضد الفتق، وقد رتقت الفتق ارتقه قال ابن عباس رضي الله عنهما - يعني أنهما كانا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء وقال كعب: خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطها ففتحها بها، وجعل السموات سبعاً والارضين سبعاً.

(٢) فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات نظيره قول الله تعالى «والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع» واختار هذا القول الامام الطبري لأن بعده «وجعلنا من الماء كل شيء حي».

فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۚ﴾ (الانبياء: ٣٠).

أما عن **مرحلة الرتق** (أي الضم) ففيها خلق الله سبحانه وتعالى ذرات (الايدروجين) وبثها في الفضاء الشاسع الفسيح. وهذا هو **الطور الاول أو اليوم الأول**. ثم أودع الله فيها خاصية الجاذبية فتكوّنت منها كتلة (السديم) الضخمة وتصادمت الذرات وتدافعت في اندفاعها الى مركز الجاذبية فارتفعت درجة الحرارة الى حد كبير جعلها تدور حول نفسها في سرعة كبيرة. وهذا هو **الطور الثاني أو اليوم الثاني**. وكانت السماء والأرض مندمجتين معا داخل كتلة السديم وما زالتا في ضمير الغيب.

وهذان هما اليومان اللذان أشار اليهما القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (فصلت: ٩). أي أعدها تمهيداً لانفصالها وتكوينها وهما اليومان اللذان اشارت اليهما لآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ١١-١٢).

ما هذه الايام: الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسي وقدر فيهما الأقوات، واحل فيهما البركة فتمت بهما الايام الأربعة..؟ إنها بلا شك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها وليست من أيام هذه الأرض، فايام هذه الأرض إنما هي مقياس زمني مستحدث بعد ميلاد الأرض وكما للأرض أيام، هي مواعيد دورتها حول نفسها أمام الشمس، فللكواكب الأخرى أيام وللنجوم أيام، وهي غير أيام الأرض بعضها أقصر من أيام الأرض، وبعضها أطول قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧).

والأيام التي خلقت فيه الأرض أولًا، ثم تكونت فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات هي أيام أخرى مقيسه بمقياس آخر لا نعلمه.

وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل اليه علمنا البشري، انها هي

الازمان التي مرت بها الارض طورا بعد طور حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة. وهذه قد استغرقت فيما تقول النظريات العلمية: نحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).

إنها ايماءة عجيبة الى انقياد هذا الكون للناموس والى اتصال هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته، فليس هناك اذن الا هذا الانسان الذي يخضع للناموس كرهاً في أغلب الأحيان انه خاضع حتما لهذا الناموس لا يملك أن يخرج عنه - وهو ترس صغير جداً في عجلة الكون الهائلة والقوانين الكونية الكلية تسري عليه رضي أم كره.

ولكنه وحده الذي لا ينقاد طائعا كطاعة الأرض والسماء، إنما يحاول أن يتفلت وينحرف عن المجرى الهين اللين، فيصطدم بالنواميس التي لا بد أن تغلبه، وقد تحطمه وتسحقه، فيستسلم خاضعا غير طائع.

إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإراداتهم ورغباتهم واتجاهاتهم.. تصطلح كلها مع النواميس الكلية، فتأتي طائعة، وتسير هيّنة لينة مع جملة الكون الهائلة، متجهة الى ربها مع الموكب متصلة بكل ما فيه من قوى، وحينئذ تصنع الأعاجيب وتأتي بالخوارق لانها مستمدة من قوته الهائلة وهي منه وهو مشتمل عليها في الطريق الى الله تعالى[1].

ثانيا: مرحلة الفتق:

وفيها تصدعت كتلة السديم وانقسمت وتوالت الانقسامات فظهرت المجرات ثم انقسمت الى شموس، ومن الشموس انفصلت المذنبات فظهرت الكواكب ومن الكواكب انفصلت الأقمار والنيازك والشهب، وانتهى التكوين بظهور المجموعة الشمسية.

ولما انصدعت الأرض أو انفصلت من الشمس وقعت تحت تأثير

(١) يراجع في ظلال القرآن سيد قطب عند تفسيره لهذه الآية.

جاذبية الشمس لترجع اليها، وقوة الطرد الناشئة عن الانصداع فاخذت مدارها الفكلي حول الشمس وهذا ما اشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ (الطارق: ١١-١٤). وكذلك انفصل القمر عن الأرض ودار حولها تحت تأثير قوتي الصدع والرجع.

ومن هنا نستطيع أن نقول: ان نشأة الأرض قد مرت مع السماء في الطورين الأولين في مرحلة الرتق. ولما بدأ الفتق مرت في أربعة أطوار أو أيام كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (فصلت: ٩، ١٠).

وهذه الأطوار الأربعة هي:

(١) دفعها في مدارها حول الشمس فان معنى (دحاها) دفعها. وتداحى الصبية بالكرة: تدافعوها. والمدحاة: خشبة يدفع بها المتبارون الحجارة لتقع في حفرة معدة لذلك، وهي لعبة قديمة تشبه لعبة (الجولف) الآن وهذا ما عبر عنه قول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ (النازعات: ٣٠).

(٢) برودة سطحها بفعل الأمطار الغزيرة، وصلاحية تربتها لتكوين الأنهار والعيون والجداول، وصلاحيتها لانبات الاشجار والأعشاب. وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ (النازعات: ٣١).

(٣) بروز الجبال لتثبيت الأرض واتزانها، وابطاء حركتها لتحتفظ بما على ظهرها من كائنات وغلاف جوي، وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة في قوله ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ (النازعات: ٣٢).

(٤) وبهذه الأطوار السابقة تهيأت الأسباب لاتمام الطور الرابع وهو ظهور الانسان والحيوان وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ (النازعات: ٣٣).

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن القرآن الكريم كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يكتفي فيما يتعلق ببعض الموضوعات العلمية بالرمز. ويترك التفصيل للعقول المفكرة التي اهتدت به، وأيضا للتجارب العلمية المتوالية. وقد وعدنا الله تعالى أن يطلعنا على كثير من آياته البينات في الكون بما يتسق مع آيات الكتاب العزيز. حتى يزداد المؤمنون إيماناً بكتاب ربهم ويعود الملحدون والمنكرون الى آياته المتلوة من كتابه، وآياته المجلوة في الكون والحياة قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ (النمل: ٩٣).

وقوله أيضا: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ (فصلت: ٥٣).

واذا كان ذلك كذلك فما حقيقة الأرض أهي كروية أم أنها مسطحة..؟

للاجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطا آخر في المبحث.

كروية الأرض

بين القبول والرفض

قال الله تعالى:

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾

قال تعالى:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾

كروية الأرض بين القبول والرفض..

هل الأرض كروية الشكل..؟

أم انها منبسطة ومسطحة..؟

وإذا كانت الأرض كروية فما موقف فقهاء الاسلام من هذه القضية..؟

وهل للعلم والعلماء دور فيها..؟

إن الباحث المدقق إذا أراد أن يضع يده على الرأي الأمثل في هذه القضية فعليه أن يلتزم بقواعد البحث التي تعتمد على الملاحظة والتجربة وليكن رائده كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ودليله نتائج أبحاث العلماء وأهل الخبرة المنصفين.

وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لنا أن نتعرف على أراء فلاسفة اليونان ومن سبقهم من الأمم الغابرة في هذا الموضوع.

لقد كان الأقدمون يرون أن الأرض التي يعيشون عليها مستوية السطح ومبسوطة بسطاً طويلًا ممتدا لا يعوقه التواء أو انحاء.

وقد تأثر بهذا الرأي الكثير من رجالات الكهانة وبعض أصحاب الملل والنحل السابقة على أصحاب الرسالات.

واستمر الحال على ذلك حتى ظهر «فيثاغورس» الفيلسوف اليوناني في منتصف القرن السادس ق.م. ونادى بأن الأرض كروية.

وكان دليله فميا يدعيه أن الشكل الأكمل في الأشكال الهندسية هو شكل الكرة، وأن الأرض لا يمكن تصورها إلا على الشكل الأكمل.

واستمرت هذه النظرية قائمة في دولة اليونان حتى القرن الرابع ق.م. عندما ظهر «ارسطوطاليس» ٣٨٤-٣٢٢ق.م.

وقال إن ما يقع في منظر دوران الكرة السماوية من الاختلاف باختلاف خطوط عرض البلدان دليل على كروية الأرض.

واستمرت الأبحاث والتكهنات عند فلاسفة اليونان حتى توصلوا الى أدلة تكاد تكون قاطعة على كروية الأرض. من ذلك:

١- أن ظل الأرض على القمر وقت الخسوف يكون مستديراً.

٢- لاحظوا ظهور نجوم كانت مختفية عنهم كلما ساروا شمالا والعكس كذلك فاستدلوا من هذه الملاحظة أن انحناء الأرض بين الشمال والجنوب مستمر، وهذا لا يكون إلا اذا كانت الأرض كروية.

٣- لاحظوا ظهور أعالي الأشياء قبل أسافلها في كل من اليابس والماء ومعنى ذلك أن الأرض كرة كاملة الاستدارة.

موقف علماء الاسلام من هذه القضية..

جاء الاسلام وحث أتباعه على التعلم والضرب في فجاج الأرض بحثا عن المعرفة، وكان رائدهم في ذلك قول الرسول - ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها».

وبرع كثير من رجالات الاسلام في علم الهيئة والفلك، ومن هؤلاء أبو زيد أحمد بن سهل البلخي، صاحب المدرسة البلخية في الجغرافيا العامة.

ولقد توصل هذا العالم الكبير عن طريق أبحاثه واستنتاجاته الى كروية الأرض، وقد ظهر ذلك في «خارطته» التي قدم فيها شكل الكرة الأرضية دائرة يحيط بها البحر.

وجاء بعده «البيروني» الذي قدم في كتابه «القانون السعودي» في الفلك أدلته الباهرة على كروية الأرض. من ذلك.

أن انحاء الأرض في الجهات الواقعة بين خطي الطول والعرض دليل على كرويتها وقد أثبت ذلك عمليه بواسطة أطول الأيام في مدينتين مختلفتين في الموقع... واتخذ لذلك مدينة «بلغار» في أقصى الشمال ومدينة «عدن» التي تبعد عنها جهة الجنوب.. ووجد أن أطول الأيام في عدن يزيد قليلا على اثنتي عشرة ساعة، أما في بلغار فهو أقل من سبع عشرة ساعة.

ولاحظ وجود فرق مقداره ساعتان بين وقت الشروق والغروب في البلدتين ولذلك حينما تشرق الشمس على عدن تكون قد صعدت في السماء فوق بلغار الى ارتفاع تقدر مدته بساعتين.

فما معنى ذلك..؟

معناه أن الأرض لو كانت مسطحة لتساوى على سطحها طول اليوم في كل مكان لأن الشمس ستشرق ساعتها على جميع البقاع مرة واحدة. وهذا بالطبع لم يحدث منذ الأزل[١].

فاذا ما انتقلنا الى عالم آخر وهو ابن حزم الأندلسي نراه يقول:

«ان البراهين قد صحت بأن الأرض كروية لدى العلماء، وان كانت العامة لا تعتقد هذا الرأي بناء على النظر القاصر والفكر المحدود.

وجوابنا على ذلك: أن أحداً من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم - رضي الله عنهم قد وافق على قول العامة. بل البراهين من القرآن والسنه قد جاءت بتكويرها.

فيقال لمن أنكر ما جهل ذلك من العامة أليس انما افترض الله عز وجل علينا أن نصلي الظهر إذا زالت الشمس..؟ فلا بد من نعم فيسألون عن معنى زوال الشمس.

فلا بد من أنه إنما هو انتقال الشمس عن مقابلة من قابل بوجه

(١) القانون السعودي للبيرونى نقلا من كتاب المنهج الايماني للدراسات الكونية للدكتور عبد العليم خضر ص. ٢٤٠.

الشمس «قرص الشمس» واستقبل بوجهه وأنفه وسط المسافة التي بين موضع طلوع الشمس وبين موضع غروبها في كل زمان ومكان... وأخذها الى جهة حاجبه الذي يلي موضع غروب الشمس.

وذلك إنما هو أول النصف الثاني من النهار[1].

ويخلص ابن حزم من ذلك الى أن الأرض كروية.

وإذا كان ذلك كذلك فما موقف آيات التنزيل الحكيم من كروية الأرض..؟

للاجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطا آخر في المبحث وعلى الله قصد السبيل.

كروية الأرض في منهج القرآن الكريم

١- قال الله تعالى

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (ق: ٧). هذه الآية هل تفيد كروية الأرض..؟

أم أنها تدل على أنها ممدودة وليست كروية..؟

يقول الشيخ الشعراوي وهو من علماء الاسلام المعاصرين: المد: البسط، ومعنى ذلك أننا أينما سرنا فالأرض مبسوطة إذا كنا في خط الاستواء فالأرض مبسوطة، وإذا كنا في القطب الشمالي أو الجنوبي فالأرض مبسوطه، وإذا كنا في أوربا أو أمريكا أو آسيا فالأرض مبسوطه، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية لأنه لو كانت مسطحة، أو مربعة أو مثلثة، أو مسدسة، لوصلنا فيها الى حافة أو نهاية، وهذا لم يحدث. فالأرض إذن كروية[2].

---

(١) راجع كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١-٩٧-٩٨ دار المعرفة بيروت.

(٢) راجع معجزة القرآن للشيخ الشعراوي ص. ٨٩-٩٠.

٢- قال الله تعالى:.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ (النازعات: ٣٠).

الدحية: هي البيضة. والحقيقة التي أثبتها العلماء أن الأرض ليست كرة هندسية كاملة، وإنما هي بيضاوية الشكل حسب تصوير الأقمار الصناعية لها من خارج جو الأرض.

كما أثبتت البحوث العلمية، والأرصاد الجوية أن أحد القطبين أكثر سيولة من الآخر وبدوران الأرض حول نفسها يتخذ القطب الصلب شكل الاستدارة أكثر من الآخر تماما كما في شكل البيضة[1].

٣- قال الله تعالى:

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥).

يقول صاحب الظلال: إنه تعبير عجيب يقسر الناظر قسراً على الالتفات الى ما كشف حديثا عن كروية الأرض...

ثم يقول: فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض كروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مكور فالنهار كان عليه مكوراً والليل يتبعه مكوراً كذلك... واللفظ يرسم الشكل ويحدد الوضع ويعين نوع طبيعة الأرض، وحركتها وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية[2].

٤- قال الله تعالى:

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ (الشعراء: ٢٨).

---

(١) راجع المنهج الايماني مصدر سابق ٢٤٥-٢٤٦.

(٢) راجع في ظلال القرآن ٥: ٣٠٣٨.

يقول الدكتور عبد العليم خضر: قرن الله سبحانه وتعالى كلمة المشرق والمغرب لأنه لا يوجد مشرق بدون مغرب كروية الأرض تحتم هذا.. ففي الوقت الذي تغرب فيه الشمس على جهة في نفس الوقت وفي نفس اللحظة تشرق على جهة أخرى. فالشروق والغروب يتم في وقت واحد أي أن الشمس تغرب على بلد في نفس الوقت تشرق فيه على بلد آخر.

وهذا معناه أن الأرض كروية بكل وضوح[1].

ومثله قول الله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن: ١٧).

وقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ (المعارج: ٤٠).

واذا كان ذلك كذلك وأن الأرض كروية، وأنها تدور في فلكها الذي حدده الله تعالى لها...؟.

فما حقيقة الأرض في منهج القرآن الكريم..؟

للاجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطا آخر في المبحث. وعلى الله قصد السبيل...

(١) المنهج الأيماني ٢٥٤.

حقيقة الأرض[1] في منهج القرآن الكريم

تكرر لفظ الأرض كثيراً في القرآن الكريم، وحمل في طياته وجوها عدة ومعاني متباينة ولقد عكف العلماء على ذلك، وحصر بعضهم الوجوه التي جاءت لمعنى الأرض في كتاب الله في أربعة عشر وجها.

الأول: بمعنى الجنة. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥). ولكن كيف يتم ذلك..؟

فإذا كانت أرض الجنة، فالطريق إليها معبّد معروف، وهو أن يحقق الفرد دور الخلافة في الأرض. وذلك بالالتزام بشرع الله تعالى في الصغير والكبير في الحقير والجليل.

أما اذا كانت أرض الدنيا: فيرى فقهاء الأمة بأنه إذا اجتمع ايمان

(١) الأرض: هو الجرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون، وأرضات والأراضي جمع غير قياسي، ولم يأت بجمعها القرآن الكريم، ويعبر بها عن أسفل الشيء كما يعبر بالسماء عن أعلاه.
وأرض أريضة حسنة النبت زكية معجبة للعين خليفة للخير، والأرضة محركة دودة خبيثة مفسدة، وخشب مأروض أكلته الأرضة، والأرضة بالكسر وبالضم الكلأ الكثير.
وسئل بعضهم: ان ابن آدم يعلم أن الدنيا ليست بدار قرار فلم يطمئن اليها..؟ فقال: لأنه منها خلق فهي أمه، وفيها ولد فهي مهده، وفيها نشأ فهي عشه، وفيها رزق فهي عيشه، واليها يعود فهي كفاته - أي المكان الذي يقبر فيه - ثم هي أخيرا ممر الصالحين الى الجنة.

القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أي فترة من فترات التاريخ.

ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح.

وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالايمان.

وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الايمان الصحيح الدافع الى العمل الصالح والى عمارة الأرض والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله الى هذا الانسان.

والواجب على أصحاب الايمان أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله وتجري سنته ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥). - فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون.

الثاني: بمعنى أرض الشام وبيت المقدس قال الله تعالى:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: ١٣٧) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: مشارق الأرض ومغاربها قاله الحسن.

الثاني: مشارق أرض الشام ومصر.

الثالث: أنه على اطلاقه في شرق الأرض وغربها، فالأرض مخصوصة عن الحسن وقتادة وقيل: أراد جميع الأرض.

الرابع: بمعنى المدينة المنورة قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧).

وقال أيضا: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠).

وقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (العنكبوت: ٥٦).

يقال: نزلت هذه الآية في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى ليس بصواب بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده.

أي إن كنتم في ضيق من إظهار الايمان بها فهاجروا الى المدينة فإنها واسعة. ويرى العلماء أن الذهاب من الأرض الى غيرها ينقسم الى قسمين:

الأول: أن يكون الذهاب هرباً.

الثاني: أن يكون الذهاب طلباً.

والأول: ينقسم الى ستة أقسام.

أ- الهجرة: وهي الخروج من دار الحرب الى دار السلام.

ب- الخروج من أرض البدعة الى أرض الاتباع قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول لا يحل لأحد أن يقيم في أرض البدعة.

قال ابن العربي: وهذا صحيح فان المنكر إذا لم تقدر أن تغيره فزل عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الانعام: ٦٨).

ج- الخروج من أرض غلب فيها الحرام، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

د- الفرار من الأذية في البدن حتى يخلص نفسه من ذلك، وأول من فعله ابراهيم عليه السلام.

قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ (العنكبوت: ٢٦).

وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ (الصافات: ٩٩).

وقال مخبراً عن موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (القصص: ٢١).

هـ- خوف المرض في البلاد الوخمة، والخروج منها الى الأرض السليمة، وقد أذن ﷺ للرعاة حين استوخموا المدينة أن يخرجوا الى المرعى فيكونوا فيها حتى يصحوا.

و- الفرار بالمال فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

وأما قسم الطلب فينقسم قسمين:

أ- طلب دين.

ب- طلب دنيا.

فأما طلب الدين فيتعدد بتعدد أنواعه الى تسعة أقسام: **السفر للعبرة** قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (يوسف: ١٠٩).

الثاني: السفر لأداء فريضة الحج. قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

الثالث: سفر الجهاد قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٢٠).

الرابع: سفر المعاش: فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الاقامة فيخرج في طلبه لا يزيد عليه - وهو فرض قال تعالى:

﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠).

الخامس: سفر التجارة والكسب الزائد على القوت وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى قال جل من قائل:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة:

١٩٨). والفضل التجارة.

قال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠).

السادس: السفر في طلب العلم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ (التوبة: ١٢٢).

السابع: قصد البقاع قال ﷺ: «لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد».

الثامن: السفر الى الثغور للرباط بها وتكثير سوادها والدفاع عنها قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وقال أيضا:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠).

التاسع: السفر لزيارة الاخوان في الله تعالى: قال رسول الله - ﷺ: «زار رجل أخاً له في قرية فأرصد الله لهن ملكاً على طريقه». فقال له: أين تريد..؟

فقال: أريد أخا لي في هذه القرية..؟

قال: هل لك من نعمة تربها عليه..؟

قال: لا. غير أني أحببته في الله عز وجل.

قال: فاني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه[1].

الرابع: بمعنى أرض مصر خصوصاً قال تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ (القصص: ٤).

وقال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ (يوسف: ٥٥).

---

(١) رواه الامام مسلم في صحيحه.

وتبرز الآية الأولى يد القدرة متحدية تضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر، وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة، وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية. وهذا المعنى هو الذي يجب تقريره وتثبيته في وجه القوة الباغية الطاغية.

لأن الشر حين يتجاوز حده يحمل سبب هلاكه في ذاته، والبغي حين يتمرد لا يحتاج الى من يدفعه من البشر. بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم فتنقذهم وتبرز عناصر الخير فيهم، وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين.

الخامس: بمعنى أرض ديار السلام قال تعالى:

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الكهف: ٩٤).

السادس: بمعنى جميع الأرض قال الله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (هود: ٦).

وليس المقصود أن هناك رزقاً فردياً مقدراً لا يأتي بالسعي، ولا يتأخر بالقعود ولا يضيع بالسلبية والكسل كما يعتقد بعض الناس.

والا فأين الأسباب التي أمر الله بالأخذ بها وجعلها جزءاً من نواميسه..؟ وأين حكمة الله في اعطاء المخلوقات هذه المقدرات والطاقات..؟

وكيف تترقى الحياة في مدارج الكمال المقدر لها في علم الله..؟

إن لكل مخلوق رزقاً هذا حق. وهذا الرزق مذخور في هذا الكون، مقدر من الله في سننه التي ترتب النتاج على الجهد، فلا يقعدن أحد عن السعي، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة.

ولكن السماء والأرض تزخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنّة الله التي لا تحابي أحداً ولا تتخلف أو تحيد.

السابع: بمعنى تراب القبر قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢).

للمفسرين قولان:

أحدهما: أن معناه: ودوا لو تخرقت بهم الأرض فساخوا فيها.

الثاني: أن معناه: ودوا أنهم لم يبعثوا لأن الأرض كانت مستوية بهم قبل خروجهم منها.

الثامن: بمعنى تيه بني اسرائيل. قال تعالى:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (المائدة: ٢٦).

وهكذا أسلمهم الله - وهم على أبواب الأرض المقدسة - للتيه، وحرم عليهم الأرض والأرجح أنه حرّمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابته جديدة، وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل، جيل يعتبر بالدرس وينشأ في خشونة الصحراء صلب العود، جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل.

والذل والاستعباد يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب.

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس - فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر. وقال لهم نبيهم أشيروا علينا أيها الناس..؟

قالوا: والله لا نقول لك يا رسول الله كما قالت بنو اسرائيل لنبيهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤).

ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكم مقاتلون.

التاسع: كناية عن القلوب قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧).

إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان هذا الزبد نافش منتفخ ولكنه بعد غثاء.

والماء من تحته ساكن هادئ ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة.

والمعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص. فان الخبث يطفو، وقد يحجب المعدن الأصيل.

ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء.

وذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة. فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ولكنه بعد زبد أو خبث.

ما يلبث أن يذهب مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه.

والحق يظل هادئاً ساكناً. وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أوضاع أو دفن تحت التراب. ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي، والمعدن الأصيل.

العاشر: بمعنى ساحة المسجد وصحنه قال تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الجمعة: ١٠).

يقال كان عراك بن مالك - رضي الله عنه - إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال:

«اللهم اني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[(١)].

---

(١) راجع تفسير القرطبي عند حديثه عن هذه الآية.

الحادي عشر: بمعنى المقام قال تعالى:

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: ٣٤).

يقول صاحب الظلال: إن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة، تدرك بالمواجهة علمها المحدود، وعجزها الواضح ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدعاة وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم الا قليلا، وأن وراء الستر الكثير مما لم يعلمه الناس. وصدق الله العظيم في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الاسراء: ٨٥).

الثاني عشر: بمعنى أرض مكة شرفها الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧). بمعنى مكة - وهو اعتذار غير صحيح إذ كانوا يستطيعون الحيل، ويهتدون السبيل عندها قالت لهم الملائكة:

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾

ويفيد هذا السؤال الجواب أنهم ماتوا مسلمين ظالمين لأنفسهم في تركهم الهجرة.

الثالث عشر: بمعنى أرض قريظة وبني النضير قال تعالى:

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ (الأحزاب: ٢٧).

وأرضاً لم تطؤوها - أي لم تطؤوها بأقدامكم بعد، وهي مما سنفتحها عليكم وفيها أربعة أقوال:

أ- أنها أرض فارس والروم.

ب- أنها الأرض التي يتملكها المسلمون الى يوم القيامة.

ج- أنها أرض مكة.

د- أنها أرض خيبر التي كان يملكها اليهود.

الرابع عشر: بمعنى أرض المحشر قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ (ابراهيم: ٤٨).

روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله - ﷺ - قال: كنت قائماً عند رسول الله - ﷺ - فجاء حبر من أحبار اليهود فقال:

السلام عليك وذكر الحديث وفيه: فقال اليهودي أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات..؟

فقال رسول الله - ﷺ:

«في الظلمة دون الجسر».

وخرج عن عائشة قالت: سئل رسول الله - ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ (ابراهيم: ٤٨).

فأين يكون الناس يومئذ..؟

قال: على الصراط.

فهذه الأحاديث تنص على أن السماوات والأرض تبدل وتزال ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها. والله أعلم.

ونتساءل الى أن شيء تتبدل..؟

أتراها تتبدل الى أرض أخرى. ومن ذلك كان قول الرسول - ﷺ: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فلا يتركها حتى يغرسها».

أم أن التبديل يكون بتحويلها الى جنة ونار كما في الأثر: اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت.

فلا تكون إلا جنة ونار في كون الله تعالى.

إن آيات القرآن الكريم لم تشر إلا عن حقيقة التبديل، أما عن كيفيته وماذا يكون بعده.. فليس لدينا علم من ذلك والواجب علينا التسليم

ونقول: كل من عند ربنا حتى يكشف لنا عن سره في الخلق والحياة.

وإذا كان ذلك كذلك فيطيب لنا أن نقطع شوطاً آخر في المبحث لنتعرف على خلق من كون الله تعالى وعلى الله قصد السبيل.

الجبال

بين العلم الحديث ومنهج القرآن الكريم

قال تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ (النمل: ٨٨).

الجبال بين العلم والدين

الجبل: جزء من سطح الأرض يرتفع عما يجاورة كثيراً، أو هو جزء لا يتجزأ من قشرة الأرض الصلبة، له جذوره العميقة فيها.

وللجبال وظائف كثيرة، ومن أهمها أنها تعمل على تماسك طبقات القشرة الأرضية الصلبة المتراصة بعضها فوق بعض، كما تمسك الأوتاد الخيمة وتشدها قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٦، ٧).

والعلم الحديث يؤكد أن الجبال «مساكات» للقارات في الصخور السائلة التي توجد تحت القشرة الأرضية الصلبة، ولولا جذور هذه الجبال المنغرسة في طبقات «السيما» لطفت القشرة المكسرة الى قارات وانعدم توازنها وثباتها فالجبال هي التي تحفظ توازن القشرة الأرضية، لأن قشرة الأرض اليابسة في تغير مستمر تحت تأثير عوامل عديدة.

وهذا التغيير يحمل أجزاءها الصاعدة «الجبال» والهابطة «البحار» على عدم الاستقرار، وعدم الاتزان من آن الى آخر فتحدث هزات القشرة أو هي تتصدع، أو تنفجر منها البراكين.

فالجبال ساهمت في جعل الأرض قراراً مستقرا قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ (غافر: ٦٤).

وهذا القرار قد جهز أحسن تجهيز. لتكون الجبال مصدراً للمنافع ومتعة للانسان ومراحاً له ولأنعامه قال تعالى:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ (النازعات: ٢٧-٣٣).

ولقد أقترن نزول المطر وجريان الأنهار بالجبال الشاهقة الارتفاع قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ (المرسلات: ٢٧).

من ذلك أن الأمطار بسقوطها على قممها تتجمد، لأن الحرارة في المرتفعات منخفضة جداً عما هي عليه على سطح البسيطة فتتراكم الثلوج على رؤوس الجبال مدة الشتاء حتى يأتي الصيف فتذيب الشمس جزءاً منها فيسيل الى السفوح فتتكون منه البحيرات التي تكون المستودع للأنهار العظيمة الضرورية لحفظ حياة الانسان والحيوان والنبات.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى: أن تزود الأنهار دائماً بالمياه وذلك بأن تسلط على الكتل الثلجية الكبيرة عوامل طبيعية تعمل على إذابتها وتحويلها الى ماء وبهذه الوسيلة تستمر الحياة على ظهر البسيطة قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

فلولا الماء ما اهتزت السنابل المتموجة، ولولاه ما ارتفعت الأشجار باسقة بثمار شهية، وأزهار متفتحة، ولولاه ما حلقت طيور مرفرفة ولولاه ما تسابقت الأسماك قافزة.

وأخيراً لولا الماء ما وجدت الحياة مطلقاً على ظهر الكرة الأرضية.

ونعود الى قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٧).

والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف درجة صلابتها وشكلها ومدى تعمق جذورها في الأرض.

والجبال كذلك تختلف عن بعضها البعض من حيث درجة الرسوخ في الأرض باختلاف درجة صلابة صخورها وكثافتها بالنسبة لطبقة السيما.

وإذا كانت الأوتاد تشكل وتنحت قبل غرسها وتثبيتها في الأرض، فالجبال أيضاً كذلك نحتت من المرتفعات القديمة ورسبت طبقة فوق طبقة الى أخرى حتى زاد وزن الرسوبيات وغاصت في الأرض الى السيما وتراكمت فوقها كتل وكتل أخرى وانضغطت بالزحف الجانبي للقارات فتشكلت في شكل أوتاد لها جذور في أسفل القشرة.

يقول العالم الجيولوجي الأمريكي «داتون»

«دوران الأرض لا يؤدي الى اضطرابها، لأن الجبال والكتل المرتفعة وما بينها من منخفضات وأودية متوازنة تماما مع بعضها. وأن الجبال البارزة خفيفة الكثافة ومتعمقة بجذورها كالأوتاد في التكوينات التي ترتكز عليها بمقدار متوازن مع ثقلها ككل ومع ثقل كل منها حسب حجمه وارتفاعه وكثافة صخوره».

وهو بهذا يردد ما قاله القرآن الكريم من ألف وثلاثمائة سنة عن دور الجبال في تثبيت قشرة الأرض وتوازنها واستقرارها.

ويقول: «هيفورد»:

«انه على عمق ١٠٠ك.م. تقريبا من سطح الأرض يوجد ما يسمى بخط التوازن وأن المواد التي توجد فوقه متفاوتة الكثافة وبالتالي متفاوتة الارتفاع لتساوي جذورها عند مستوى التوازن».

يقول الدكتور عبد العليم خضر: وهذا التفاوت في الارتفاع سببه هو اختلاف كثافة المواد المكونة للاشكال فالجبال العالية صممها الخالق الأعظم من أقل المواد كثافة حتى لا تطير في الهواء وتضطرب الأرض، أما المناطق الشاطئية فهي أثقلها كثافة وصدق الله العظيم.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥).

واذا كان ذلك كذلك فيطيب لنا أن نلقي بعض الأضواء على أنواع الجبال المنتشرة على سطح الكرة الأرضية، وعلى الله قصد السبيل.

أنواع الجبال

صنف علماء «الجولجيا» الجبال التي حوتها الكرة الأرضية الى مجموعات متعددة الأسماء والصفات، من ذلك:

١- الجبال الالتوائية الحديثة:

وهذا النوع من الجبال يمثل مناطق من القشرة تكوّنت من طبقات رسوبية مضغوطة بفعل زحف الكتل القديمة على البحار التي كانت مملوءة بهذه الرواسب الأمر الذي جعلها ترتفع ملتوية عن سطح الأرض. ولكن عوامل التعرية التي سخرها الخالق الأعظم شقت فيها سبلا فجاجا وممرات وأودية فجرت فيها أنهاراً قال تعالى:

﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥).

وقال أيضا:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح: ١٩، ٢٠).

مثال ذلك: جبال الألب في أوربا التي تقطعها الممرات مثل ممر «جريت سان برنارد» وممرات وفجاج في جبال «الهيملايا».

وينطبق مدلول الآية الكريمة على ما فعلته الأنهار في جبال «دراكنزبرج» و«نيوفيلد».

وتدل آيات القرآن الكريم أن قشرة الأرض مثبتة بجبال راسخة شامخة صلبة وقد خلق الله فيها مسالك وأودية وسبلا فجاجا وأنهاراً.

قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ (الرعد: ٤).

وقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١).

وفي سورة النحل قال تعالى:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥).

وإذا كان لفظ «ألقى» يدل على إلقاء شيء من علٍ على شيء آخر فإن العلماء يرون أن الجبال الالتوائية قد ألقيت فعلا من علٍ من قمم الجبال القديمة بعد أن نحتتها عوامل التعرية ونقلتها وأرسبتها[١].

٢- الجبال البركانية:

وتتألف أساساً من المخروطات البركانية، وهي محدودة الانتشار، وتظهر في أجزاء متفرقة من مرتفعات «الأنديز» بأمريكا الجنوبية، والمكسيك، وبمرتفعات «كولومبيا» «البريطانية».

وأيضا في جزر هاواي، وجزيرة مدغشقر، وهضبة البحيرات الاستوائية وبراكين حوض البحر الأبيض المتوسط، وبراكين البحر الكاريبي، وبراكين جزيرة أيسلندا.

وتعمل عوامل التعرية على تفتيت صخور البركان ونقل المفتتات الصخرية الى مناطق بعيدة عن المخروطات الجبلية البركانية، ولا تبقي في النهاية منها سوى أعمدة راسبة بركانية تمثل قصبة البركان ويطلق عليها اسم الهياكل البركانية.

ومن أجمل هذه الهياكل بقايا مخروط بركان «شيبروك» في المكسيك، و«هيكل سانت مايكل» في فرنسا وغير ذلك.

٣- الجبال الصدعية:

وتتكون هذه الجبال بفعل حركات التصدع التي تتعرض لها صخور القشرة الأرضية. ويعد الحوض العظيم في جبال الروكي بغرب الولايات المتحدة أظهر مثال لهذا النوع من الجبال الصدعية التي تحصر بينها

(١) راجع المنهج الايماني للدراسات الكونية للدكتور عبد العليم عبد الرحمن.

أحواض صدعية هابطة ومن ثم يطلق الجيولوجيون على المظهر التضاريسي العام للجبال الصدعة اسم «ظاهرات الأحواض والسلاسل الجبلية الصدعية»(1).

وقد قسم علماء الجغرافيا الجبال على اختلاف أشكالها وتباين ضروبها وتنوع أصنافها الى ثلاثة أقسام:

الأول: جبال صخرية وتحتوي على المعادن المسخرة لمنفعة الانسان قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣).

ومن أمثلة ذلك جبل «سيد» في هضبة نجد وتوجد به رواسب الحديد وصخور الكبريتيد وخامات الزنك والفضة والذهب.

ويوجد الفحم في جبال «البرز» شمال شرق طهران، وفي المنحدرات الشمالية من الجبال في أفغانستان، وفي جبال كراب بالبانيا. وتوجد تكوينات فحم البيتومين في جبال «بيشار» وجبل مظاريف وجبل عنتر بجمهورية الجزائر.

ويوجد الفوسفات في جبال المغرب، وتعتبر منطقة خوربيجا واليوسفية من أهم المناطق الحاملة للفوسفات، وفي تونس يوجد الفوسفات في جبل العنق، وفي جبال النصيرية بسوريا وغير ذلك.

ويوجد الحديد بالأناضول وجبالها بتركيا، وفي مرتفعات كدية «الجل» بموريتانيا وفي التل الشمالي بتونس وفي مصر تحتضن جبال البحر الأحمر كميات جيدة من خام الحديد.

الثاني: الجبال المغطاة بطبقة هشة من وشاح صخري ناعم الحبيبات والتي تستغل في الزراعة والرعي.

وتوجد في جبال عسير والحجاز والطائف، وفي اليمن تكتسي سفوح

(١) راجع وجه الأرض للدكتور أبو العينين ص. ٤٧٩.

الجبال والمرتفعات الوسطى بطبقة جيدة من التربة ولقد استغلت في زراعة القمح والشعير والذرة والبن والقات.

وأيضا في أفريقيا الاسلامية توجد المناطق الجبلية بالأقليم المداري الافريقي خير مثال لاستغلال سفوح الجبال للزراعة.

الثالث: الجبال صائدة المطر وجامعة للثلوج.

ومن أمثلة ذلك جبال عسير، وجبال هضبة الحبشة، وجبال الأنديز وجبال البحر الأحمر في مصر والسودان وجبال النصيرية ومرتفعات لبنان. لقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الانسان ليكون خليفته في أرضه قائما بأمره ومنفذا لشرعه.

والله سبحانه وتعالى لم يتركه لنفسه، ولكنه أرسل له الرسل والأنبياء للهداية والارشاد، وسخر له كل ما في هذا الكون قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣).

وقال أيضا:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

ومن الأشياء المسخرة الجبال:

جبال الحديد والنيكل، جبال النحاس والذهب، جبال الفضة والفسفور. قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر: ٢٧).

وجبال التربة الصالحة للزراعة، والمغطاة بالعشب الكثير والخير الوفير.

قال تعالى:

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ (النازعات: ٣٢، ٣٣).

وسخّر الجبال التي هي معاقد للمياه ومخازن للثلوج ومستودع للبشرية لخزن مياه الأمطار.

قال تعالى:

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ (النور: ٤٣).

واذا كان ذلك كذلك فما هي حقيقة الجبال في منهج القرآن الكريم..؟

للاجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطا آخر في المبحث..

وقد جاء في القرآن الكريم على وجوه كثيرة.

الأول: شاهد على تعنت الفئة الباغية التي رفضت عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد. وشاهد على دعوة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦، ٢٧).

واستجاب الله دعاءه فأرسل عليهم الطوفان.

الطوفان الذي أغرق الأخضر واليابس.

الطوفان الذي طهّر الأرض من الشرك والكفر.

وحطّم الأصنام وأغرق البهتان واكتسح الكفر وأهله.

قال تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: ٤٢، ٤٣).

الثاني: شاهد على مهارة قوم صالح في النحت والصناعة، وشاهد على تعنتهم وكفرهم وعصيانهم قال تعالى:

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (الحجر: ٨٢-٨٣).

إنها صيحة البعث، صيحة الايمان، صيحة التوحيد.

إنها صيحة القوة اقتلعت الشرك وطوحت بالأصنام.

وأبادت البهتان، وخسفت بالكفر وأهله.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (هود: ٦٦-٦٧).

الثالث: شاهد على تكليم الله لموسى عليه السلام ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤). وشاهد على ضعفه وانهياره أمام تجلي ربه قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ (الأعراف: ١٤٣).

ساخت نتوءات الجبل فبدأ مسوّى بالأرض مدكوكاً وأدركت موسى رهبة الموقف ومرت في كيانه البشري الضعيف.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ (الأعراف: ١٤٣).

مغشياً عليه غائباً عن الوعي.

(فلما أفاق) وثاب الى نفسه، وأدرك مدى طاقته واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٤٣).

تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك في حال الدنيا.

الرابع: شاهد على قدرة الله تعالى في إحياء الموتى وجمع الذرات المتناثرة في أركان الأرض قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (صرهن: قطعهن قاله ابن عباس) (البقرة: ٢٦٠).

ورأى ابراهيم عليه السلام السر الالهي يقع بين يديه السر الذي يقع في كل لحظة ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه، إنه سر هبة الحياة.

رأى ابراهيم عليه السلام طيوراً فارقتها الحياة وتفرقت أجزاؤها في أماكن متباعدة تدب فيها الحياة مرة أخرى وتعود إليه سعياً.

كيف تم ذلك..؟ هذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشري ادراكه، ولا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته الا الله تعالى، لأنه من أمره، وهو لم يشأ أن يحيط البشر بهذا الطرف من علمه، لأنه أكبر منهم وطبيعته غير طبيعتهم ولا حاجة لهم في علمه في أثناء خلافتهم على ظهر البسيطة.

الخامس: شاهد على أن الله رفعه وجعله ظلة على بني إسرائيل عند أخذ الميثاق عليهم قال تعالى:

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] (الأعراف: ١٧١).

جعل الجبل فوقهم مثل الظلّة وقيل لهم خذوا التوراة وعليكم الميثاق ألا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل فسجدوا لله وأخذوا التوراة بالميثاق وهو ميثاق لا ينسى، فقد أخذ في ظرف لا ينسى، أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم، وظنوا أنه واقع بهم. أعطوا الميثاق في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس. وقد أمروا في ظل تلك الخارقة أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة.

ولكن إسرائيل هي إسرائيل نقضت الميثاق ونسيت الله، ولجت في المعصية حتى استحقت غضب الله ولعنته قال تعالى:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ

(١) نتقنا الجبل معناه رفعناه عليهم كأنه ظلّة يتظلّلون بها.

﴿فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨-٧٩).

السادس: شاهد على المكر والخديعة، والانفلات من قيود الشريعة وتهاون البشرية في تعاليم الدين قال الله تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (ابراهيم: ٤٦).

والمراد بالجبال في هذا الموضع قولان:

أحدهما: الجبال المعروفة قاله الجمهور.

الثاني: إنها ضربت مثلا لأمر النبي - ﷺ - وثبوت دينه كثبوت الجبال الراسيات. والمعنى لو بلغ كيدهم الى ازالة الجبال لما استطاعوا ازالة دين الاسلام.

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ (ابراهيم: ٤٧).

أي قد وعدك يا محمد بالظهور عليهم وبالنصر وبالفتح. والله سبحانه وتعالى منجز وعده.

السابع: شاهد على احتضان النحل لتأخذ من كهوفه بيوتاً لأوبتها وموضعاً لعسلها. وكناً لتناسلها. قال تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل: ٦٨، ٦٩).

جعل الله بيوت النحل في هذه الأنواع الثلاثة:

إما في الجبال وكهوفها.

وإما فيما يعرش ابن آدم من الخلايا والحيطان وغيرها.

قال ابن العربي: ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن

الأشكال من المثلث الى المعشر اذا جمع كل واحد منها الى مثاله لم يتصل وجاءت بينهما فرج إلا الشكل المسدس فإنه إذا جمع الى أمثاله اتصل وكان كالقطعة الواحدة.

الثامن: شاهد على أنه كان كناً يحفظ من يأوي إليه من المطر والريح وغير ذلك قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ (النحل: ٨١).

أكنانا للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها، وفي الصحيح أنه عليه السلام كان في أول أمره يتعبد بغار حرّاء ويمكث فيه الليالي.

وفي صحيح البخاري: خرج رسول الله - ﷺ - من مكة مهاجراً هارباً من قومه، فاراً بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال. قال تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

التاسع: تسبيح الجبال لخالقها الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى. قال تعالى:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ (ص: ١٨).

وقوله أيضا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ (سبأ: ١٠).

هذه الآيات الثلاث تصور من فضل الله على داود - عليه السلام - وأنه قد بلغ من الشفافية والتجرد في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات فاتصلت حقيقتها بحقيقته في تسبيح بارئها وبارئه، ورجعت معه الجبال والطير - وهذه الدرجة من الاشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله يزيح عن حجاب كيانه المادي ويرده الى كينونته اللدنية التي يلتقي فيها بهذا الوجود وكل ما فيه بلا حواجز ولا حدود.

فيرى ما لم يكن يرى.

ويسمع ما لم يكن يسمع.

ويحس ما لم يكن يحس أو يشعر به.

فيسمع تسبيح الجبال والطير وتجاوب السهول والوديان، والأمواج والبحار والظل والشجر، والنور والظلمة، والشمس والقمر، وكل حصاة وكل حجر وكل حبة وكل برقة، وكل زهرة وكل ثمرة، وكل نبتة وكل غصن وكل حشرة وكل زاحفة، وكل حيوان وكل انسان وصدق الله العظيم في قوله:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الاسراء: ٤٤).

العاشر: موقف الجبال من الأدعياء، أدعياء الشرك وتعدد الألوهية عندما تجرؤوا ووصفوا الله تعالى بما لا يصح أن يوصف به.

﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ (مريم: ٨٨).

عندها كانت هذه الغضبة الكونية التي اشتركت فيها السماوات والأرض والجبال حتى تحولت الى زلزال كبير مدمر بمجرد سماعهم لهذه الكلمة النابية: «اتخذ الرحمن ولدا».

وكأن الكون كله قد تحول الى أفواه مزمجرة تقول لهؤلاء المشركين:

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ (مريم: ٨٩).

لقد اهتز كل ساكن وارتج كل مستقر، وغضب كل ما هو داخل في هذا الكون غضباً شديداً لبارئه وخالقه، لأن هذه الكلمة صدمت كيانه وفطرته وخالفت ما وقر في ضميره وعقله، وما استقر في كيانه وحسه وهز القاعدة التي قام عليها الوجود واطمأن إليها.

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (مريم: ٩١، ٩٢).

وفي وسط هذه الثورة العارمة تدوّي في جنبات الكون اللانهائي آيات بينات تنزيل من حكيم حميد:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٩٣، ٩٤، ٩٥).

الحادي عشر: حالة الجبال يوم القيامة، وكيف أن بعضها يسير الى حيث يريد لها خالقها قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٧).

يقول صاحب الظلال:

«إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب، مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير فكيف بالقلوب، وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية».

قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٨).

وبعضها يمر في هذا الكون العريض كما يمر السحاب بل هو أسرع قال تعالى:

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ (النمل: ٨٨).

أين تذهب في مرورها هذا..؟

إنها تترك الأرض التي أقيمت عليها فهل تذهب الى السماء..؟

وليس في السماء موضع لها قال تعالى:

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

أتراها تذهب الى كوكب الشمس أو الى كوكب آخر وفي الحقيقة ليس في مقدورها ذلك لأنها الأخرى ذاهبة بأمر الله تعالى. قال جل جلاله:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ (التكوير: ١، ٢).

إذاً هي ذاهبة حيث أرادها الله تعالى ولا يعلم ذلك إلا هو.

وبعضها ينسف نسفاً فيتطاير شظايا وذرات قال تعالى:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ (طه: ١٠٥-١٠٧).

الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفاً.

وتلاشت بعد أن كانت قلاعاً.

وتحطمت بعد أن كانت حصوناً.

وتساوت بالأرض بعد أن كانت تطاول السماء.

ثم ماذا..؟

﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ (طه: ١٠٨).

وبعضها يبث كما يبث الدقيق فيكون ذرات صغيرة متطايرة قال تعالى:

﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ (الواقعة: ٥، ٦).

إنه الهول الكبير، الذي لا يبقي ولا يذر، إنه الطوفان المدمر الذي يكتسح الأخضر واليابس، إنها الواقعة الكبرى التي تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات. والناس أين هم..؟

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤-٣٧).

ثم ماذا..؟ هل تعاد الجبال مرة أخرى..؟

هل تبدّل كما تتبدل الأرض..؟

هل تعود مرة أخرى أوتاداً وراسيات..؟

هل تعرض للحساب والعقاب أم أنها خارجة عن نطاق التكليف.

إن الجبال كما قلنا تسبّح لخالقها، وترسل الحمم والبراكين إذا أمرها ربها فهل يكون لها جزاء..

ولا شك أنها دخلت في طاعة الله عندما أمر الله السموات والأرض بذلك قال تعالى:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).

إن الآثار التي بين أيدينا لم تشر الى شيء من ذلك.

وعلينا الالتزام بما أخبرنا الله تعالى به.

ولا نطلب ما هو فوق طاقة العقل حتى ندخل في زمرة من استجابوا لأمر ربهم وقالوا:

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧).

وإذا كان ذلك كذلك فعلينا أن نقطع شوطاً آخر في المبحث وعلى الله قصد السبيل.

الماء بين العلم والدين

الماء أول ما خلق الله تعالى من المخلوقات. مصداقا لقوله:
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود: ٧).

ان هذه الآية تفيد أن الله تعالى عندما خلق السماوات والأرض وأبرزهما الى الوجود كان هناك الماء.

الماء الذي استقر عليه العرش.

أما كيف كان هذا الماء وكيف وجد..؟

وفي أية حالة من حالاته كان..؟

وكيف كان عرش الله على هذا الماء.

فزيادات لم يتعرض لها قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود: ٧).

وما كان لمؤمن يدرك حدود عقله أن يزيد شيئا على مدلول الآية في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر نعلمه به.

والماء مصدر حيوي لكل كائن حي قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

لأن الماء أساس تكوين الخلية الأولى للنبات والحيوان والانسان.

قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٩٩).

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ (النور: ٤٥).

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ (الفرقان: ٤٨).

وقال أيضا:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق: ٥، ٦).

فالماء إذن أصل الحياة على الأرض منذ بردت حرارتها تدريجيا بعد انفصالها عن الشمس.

والمطر: هو أول نشأة الحياة على الكوكب الأرض بأمر الله الذي أراد لنا ذلك قال تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (يس: ٣٣).

والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها، انما هي يد الله التي تجري المعجزات، وتبث روح الحياة في الموات، وان رؤية الزرع والناس، والجنان الوارفة لتفتح العين على يد الله القادرة وهي تشق التربة عن النبتة الصغيرة وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة وتهيئها لمن يريد أن يأكلها. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم.

ويد الله تعالى هي التي تعمل. وتقدر لهم العمل قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦).

وإذا كان الله تعالى هو الذي يحيي الأرض من الموات فهو الله تعالى الذي ينزل الماء بقدر ويحفظه في باطن الأرض قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١٨).

وقوله تعالى: بقدر».

فيراد به بتقدير يسلم معه البشر من المضرة، ويصلون الى المنفعة.

يقول الفخر الرازي: وإنه لو كان أقل مما هو لهلك الناس، وفسدت حياتهم، ولو كان أكثر مما هو لهلك الناس وذهب العمران.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (المؤمنون: ١٨).

يألفها وتألفه فلا ينفصل أحدهما عن الآخر أبداً حتى لكأنهما كائنات من عالم الأحياء يتزاوجان تزاوج الذكر والأنثى.

واسكان الماء في باطن الأرض إنما هو لرسالة يؤديها في الحياة شأنه في ذلك شأن الانسان الذي أسكنه الله هذه الأرض وجعله خليفة فيها.

فسبحان الله الذي أسكن تلك الكميات الهائلة من الماء في جوف الأرض والتي يقدرها العلماء بأنها تكفي لاغراق سطح الأرض كلها بجبالها وهضابها وسهولها بمعدل قد يصل ارتفاعه الى ٣٠٠٠ قدم.

وقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٩٩).

دور الماء في إنبات النبات ظاهر، ودوره في إنضاج الثمرة واضح لا يخفى على أحد من الناس ومع ذلك فان دور الماء في الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذي يخاطب به القرآن الناس عامة.

فقد شارك الماء - ابتداء - بتقدير الله تعالى - في جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات. عندما كانت ملتهبة وصلبة لا تصلح لإنبات النبات، ولقد تم ذلك بتعاون الماء والعوامل الجوية الأخرى على تحويلها الى تربة لينة سهلة ثم ظل الماء يشارك في إخصاب هذه التربة وذلك باسقاط مادة «النتروجين والأزوت» من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية التي تقع في الجو: النتروجين الصالح للذوبان في الماء والذي كان يسقط مع المطر فأعاد الى الأرض خصوبتها.

وبناء على ذلك، كما قرر كتاب الله تعالى، وتوصل اليه العلم حديثاً.

أن الماء من أوائل المخلوقات التي خلقها الله تعالى.

والماء أساس تكوين الخلية الأولى لكل مخلوقات الله تعالى.

والماء أصل الحياة على الأرض عندما انفصلت من كوكب الشمس.

والماء أعظم رصيد أودعه الله للبشرية في باطن الأرض.

والماء أساس حياة النبات والحيوان والانسان على ظهر البسيطة.

واذا كان ذلك كذلك فما هو الدور الذي يقوم به داخل البحار والمحيطات وهل كانت البشرية في حاجة الى تغطية ثلاثة أرباع اليابسة بالماء..؟

وإذا كانت في حاجة الى ذلك فلماذا كانت مالحة..؟ وما الحكمة في ذلك.

للاجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في البحث.

المحيطات والثروة السمكية..

هوجة قد تصل الى درجة الهوس تسري بين جنبات الكرة الأرضية، وينادى أصحابها محذرين من تناقص رقعة الأراضي الزراعية لزحف المساكن العمرانية عليها.

وتراهم يحذرون أيضا من تزايد أعداد السكان عاما بعد عام لغمر مجتمعاتهم بالوقاية الصحية والرعاية الاجتماعية.

وتراهم يؤكدون أن التربة الزراعية التي كانت تقدم الكثير من الغلال والحبوب قد قاربت من الشيخوخة، ولهذا فإن غلتها تتناقص وبعض الأراضي يصيبها العقم فلا تنتج.

ويضيفون الى ذلك أن الحروب كان لها دورها الكبير في ايجاد التوازن بين قنوات الانتاج ومتطلبات الاستهلاك.

ولكن الأمم الآن تسعى الى اقامة السلام وتتواصى فيما بينها بوقف الإعداد للحروب وتدمير أسلحة القتال.

كل هذه الأشياء تجعلهم يتنبأون للعالم بمجاعة مدمرة لا تبقي ولا تذر، وسيكون لها أسوأ العواقب في القضاء على دول كاملة عن طريق الجوع والمسغبة. وهؤلاء ينظرون الى الحياة من جانب واحد، جانبها المظلم، ونسوا أو تناسوا أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق وتكفل بأرزاقهم قال تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦).

ولكن قد يحدث أن الأرض لا تنتج، أو يصيب غلتها بعض الآفات

الطبيعية، وهذا له سبب واحد، هو أن بعض البشر ينحرفون غن أداء رسالتهم التي أناطهم الله بها. وهو دور الخلافة في الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ (البقرة: ٣٠).

ويتحول البعض منهم الى أنصاف آلهة، يدمرون ويفسدون، ويتطاولون ويخربون فينزل الله سبحانه وتعالى عليهم غضبه وعذابه في صورة الجفاف وانقطاع المطر مرة، وفي صورة نقص الغلات والثمار أخرى.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ (الشورى: ٣٠).

وقد يتساءل البعض وما ذنب الكثرة اذا كانت القلة هي التي تقوم بالافساد؟

وأتباع ابليس اللعين هم الذين يملأون الأرض ظلما وضلالا..؟

هلا خصهم الله بالعذاب وحدهم..؟ وأحاطت الفتن بهم بمفردهم..؟

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ (الأنفال: ٢٥).

يحدث هذا لأن الفئة الصالحة لم تأخذ على أيدي الفئة الطالحة، ولم يستعملوا ما أمرهم الله به، من الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والساكت عن الحق لشيطان أخرس. من هنا كان العقاب عاما وليس خاصا.

ثم نقول: والدليل على أن خيرات الله تعالى لا تنضب ورزقه لعباده مستمر ودائم أن يجعل البحار والمحيطات مستودعات للبشرية باللحم الطري، والطعم الشهي ان قلت موارد الأرض أو تناقصت غلاتها وثمارها.

قال الله تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ (المائدة: ٩٦).

وصيد البحر الأسماك بكل أنواعها. وتعتبر الأسماك أساس الثروة المائية وأولى الكائنات المائية بالدراسة والتعمق. ولهذا يقول بعض علماء البحار:

إن صنوف السمك التي تعيش في البحار والمحيطات تزيد على ثلاثين ألف نوع فسبحان الله العظيم.

الذي خلق فسوّى، وأبدع هذه الكائنات في أعماق المحيطات.

ولقد عرف الانسان من قديم الزمان طريق البحار ليحصل منها على بغيته من الطعام وما زاد عن حاجته قدمه للتجارة ليحصل على الربح الوفير.

وما زالت الكميات التي تصاد في زيادات مستمرة حتى وصلت حصيلة بعض الدول من أنواع الأسماك المختلفة الى أكثر من ٢٥ مليون طن.

ويقول «البروفيسور جون ألان جولاند» رئيس قسم تقويم الثروة السمكية التابع لمنظمة الأغذية والزراعة العالمية.

«ان المحيطات تنتج في كل سنة حوالى ١٣٠ ألف مليون طن من الأسماك والقشريات والرخويات. وصدق الله العظيم في قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (النحل: ١٤).

وقوله أيضا:

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (فاطر: ١٢).

لحما طريا: لأن الأسماك أحد المنابع الرئيسية للبروتينات الغذائية.

وفي هذا العصر أخذت بعض الدول في تحويل الأنواع الكبيرة من الأسماك الى دقيق يصنع منه وجبات شهية تقدم للجيوش أثناء قيامهم

ببعض المعارك الحربية، أو أثناء المناورات التي تستمر العديد من الأيام.

ويصنع من النفايات مادة تضاف الى أعلاف الحيوانات والطيور، وذلك لاحتواء الأسماك على نسبة عالية من الدهون والبروتينات والأملاح.

ولقد قامت شركات عملاقة في كثير من الدول التي تقع على شاطىء البحار والمحيطات ببناء العديد من المصانع وذلك لاستخلاص الزيوت من الأسماك وتعتبر هذه الزيوت من أرقى الأنواع لاحتوائها على كميات عالية من فيتامين (أ.د).

لحما طريا:

لأن بروتينيات الأسماك سهلة الهضم اذا قارناها باللحوم الأخرى من الحيوانات البرية.

لحما طريا:

لأنه غني بمادة الفوسفور التي تجلو البصر وتقويه وتساعد الاطفال على أن ينموا نموا صحيحا.

ويقول بعض علماء البحار: ان انتاج الغذاء من البحر قد زاد بنسبة سريعه جدا عن حاجة الاحتياج البشري، وزاد في كثافته عما يقدمه الإنتاج الزراعي للأرض، وذلك بدءًا من السنوات القليلة الماضية، ولا شك أن هذه الزيادة ستستمر وتتضاعف حتى يتحقق وعد الله تعالى لنا بقوله:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦).

وقوله:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ (العنكبوت: ٦٠).

وقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات: ٢٢).

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ (ص: ٥٤).

ولقد استغل الانسان من أحياء البحر كل شيء ومنها الثدييات مثل القرش والحوت وكلاب البحر وسباعه وغير ذلك.

استغل جلودها في كثير من الصناعات الراقية.

واستغل زيوتها في العديد من المأكولات والأطعمة.

واستغل شحومها في تهيئة الكثير من آلات العمل اليدوية، وشاحنات البر الثقيلة، وناقلات الجو الكبيرة، وغواصات البحر العملاقة.

ولقد عرفت «الصيدليات العالمية الكثير من الأدوية النادرة والتي استخلصت من حيوانات البحار، من ذلك.

مادة: الأنسولين.

مادة: الأدرينالين».

والدليل على أن خيرات الله لا تنضب ورزقه لعباده مستمر ودائم أن جعل البحار والمحيطات مستودعات للبشرية باللحم الطري، والطعم الشهي إن قلت موارد الأرض أو تناقصت غلاتها وثمارها.

قال تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ (المائدة: ٩٦).

وتعتبر الأسماك أساس الثروة المائية، وأولى الكائنات المائية بالدراسة والتعمق ولهذا يقول بعض علماء البحار:

ان صنوف السمك التي تعيش في البحار والمحيطات تزيد على ثلاثين ألف نوع فسبحان الله العظيم.

الذي خلق فسوى. وأبدع هذه الكائنات.

لأن بروتينيات الأسماك سهلة الهضم اذا قارناها باللحوم الأخرى من مادة: التسترون.

وغير ذلك من المستحضرات الطبية والتي تعادل مثيلاتها المستخرجة من الحيوانات البرية بل وتتفوق عليها.

من هنا نقول لهؤلاء الذين يحذرون من مجاعة، أو ببعض الكوارث التي يمكن أن تحل بالكرة الارضية نتيجة لنقص الأغذية.

على رسلكم ولا تنعقوا كنعيق الغربان: ان الله سبحانه تكفل بالرزق وتكفل بالأجل فليس هناك مجال فيهما عن طريق النقص والزيادة الا ما حدده الله تعالى في كتابه.

كل ما يطلبه سبحانه وتعالى من عباده اتخاذ الأسباب وتعمير الأرض والالتزام بالتقوى وأداء التكاليف التي أمرنا الله تعالى بها.

قال جل جلاله:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

البحار والثروات المخبوءة..

الى عهد قريب كان المعتقد أن الله سبحانه وتعالى جعل من البحار والميحطات مستودعا للبشرية بما تختزنه من المياه المالحة، والتي لا تجف ولا تفيض ولكن البعض منها يتبخر ثم يتحول الى سحاب، والسحاب الذي يعمل دائما على تغذية البحيرات والأنهار، ويساق بعضه الى الأرض الميتة فينبت النبات على ظهرها ويخرج منها كل زوج بهيج.

ولكن الذي يتابع الأعمال النشطة التي يقوم بها الخبراء والباحثون في أعماق البحار والمحيطات في عصرنا الراهن تهوله النتائج التي توصل اليها هؤلاء العلماء وذلك بوضع أيديهم على الثروات الكثيرة المخبوءة في قاع البحار والمحيطات من المعادن وغيرها، والتي يمكن أن تسد حاجة البشرية طوال عمرها المديد حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن هنا نعلم أن البحار والمحيطات ليست مستودعاً للمياه فحسب ولكنها مستودع لكل ما تتطلبه حياة البشر من معادن لصنع آلاتها، وفسفات لتغذية زراعتها، وأحجار كريمة وذهب وفضة لزينة نسائها وزيادة ثرواتها.

ولم يقتصر العلماء عند النتائج التي توصلوا اليها، ولكن هناك أعمال تجرى وترتيبات تعد، للاستفادة من هذه الثروات.

ولكن من أين جاءت هذه الثروات..؟

وكيف تكونت في هذه الأعماق البعيدة..؟

يقول العلماء: ان السيول الجارفة المتدفقة نحو البحار تجرف أمامها بلايين الأطنان من المعادن المذابة وغير المذابة فتستقر في رسوبيات القاع العميق قاع المحيطات.

وتتدفق في كل سنة في محيطات العالم مليارات الأطنان من الجوامد المذابة وغير المذابة.

لقد أثبتت أبحاث العلماء أنه اذا تمكن الانسان من استخراج الذهب الذي تحويه مياه البحار وتقسيمه على جميع سكان الأرض خمسة مليارات نسمة فسوف يكون نصيب كل فرد منا أكثر من طن من الذهب.

وصدق ربي في قوله:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (فاطر: ١٢).

ونتساءل أين يوجد الذهب..؟

أهناك أماكن معدة تترسب فيها ذرات الذهب..؟

وهل يمكن للتطورات الحديثة استخلاصه من أماكنه القابع فيها..؟

أم أن تكلفة استخلاصة تزيد على قيمته الحقيقية..؟

تقول النتائج التي توصل اليها العلماء:

«الذهب الموجود في مياه البحار يوجد على هيئة معلقة غروية جنباً الى جنب مع اللآلى الكريمة.

وتحدد بعض النتائج الأخرى أماكن تواجده بدقة فتقول:

«يوجد في قمة العامود الجيولوجي فوق النحاس، كما أن المناطق الشهيرة التي اندفع الناس إليها طلباً للثروة في «ألاسكا» و«كاليفورنيا» تقع على حدود الحافة النشطة أو بالقرب منها، ومن عملية التنبؤ المشتقة من الصورة العامة وجد منذ فترة قريبة أنها على قمة مكامن النحاس».

وبمناسبة ذكر النحاس:

فلقد قدرت بعثة سفينة الاستكشاف السوفيتية (فيتياز) النحاس الموجود في قاع البحار بحوالى ٧٩٠٠ مليون طن.

وكان الأقدمون يصنعون حلي النساء بل وحلي أدوات الحرب التي يستعملها الرجال من النحاس وصدق ربي في قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل: ١٤).

حلية تلبسونها لنسائكم.

وحلية تلبسونها لأسلحتكم.

ولقد أثبتت بعض الأبحاث الجادة من العلماء والتي أجريت في قاع البحار والمحيطات. أنه يوجد فيها كميات كبيرة من المعادن سواء كانت على شكل أملاح ذائبة أو معلقة، أو على شكل معادن صلبة ترقد فوق القاع.

وتشكل الأملاح الذائبة ما يأتي:

أ- أملاح الكلور.

ب- الصوديوم.

جـ- الماغنسيوم.

د- الكبريت.

هـ- الكالسيوم.

و- البوتاسيوم.

ي- الكربون.

كما أنه توجد أجسام معدنية دقيقة على هيئة جزئيات دقيقة معلقة بمياه البحار، ويعتقد بعض الباحثين أن حوالى ١٥٪ مما في البحار من معدن المنجنيز يوجد على هذه الهيئة الدقيقة المعلقة.

اللؤلؤ: واحد من أهم موارد البحر، وهو ذو قيمة عظيمة لندرته، ولقد اكتشفت الأبحاث الجارية أن اللؤلؤ والمرجان[١] يخرجان من البحرين الملح، والعذب، ولقد ظل المسلمون دهراً طويلا لا يعرفون تفسير قوله تعالى:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢).

وقوله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (فاطر: ١٢).

ولله در الشاعر العربي الذي التقط حسه هدى القرآن فأثبت أن اللؤلؤ يخرج من النهر فقال:

---

(١) اللؤلؤ - في أصله - حيوان. ولعل اللؤلؤ أعجب ما في البحار، فهو يهبط الى الأعماق وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء الى جوفه وتحول بين الرمال والحصى وغيرها وتحت الشبكة أفواه الحيوان ولكل فم أربع شفاه فاذا دخلت ذرة رمل أو قطعة حصى، أو حيوان ضار عنوة الى الصدفة سارع الحيوان الى افراز مادة لزجة يغطيها بها ثم تتجمد مكونة لؤلؤة.

والمرجان: من عجائب مخلوقات الله يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مائة متر ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب وفتحة فمه التي في أعلى جسمه محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذائه فاذا لمست فريسة هذه الزوائد وكثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء أصيبت بالشلل في الحال والتصقت بها فتنكمش الزوائد وتنحى نحو الفم حيث تدخل الفريسة الى الداخل بقناة ضيقة تشبه مريء الانسان، ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية، يتم منها إخصاب البويضات حيث يتكون الجنين الذي يلجأ الى صخرة أو عشب يلتصق به ويكوّن حياة منفردة شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي. والجزر البركانية الحية ذات ألوان مختلفة نراها في البحار صفراء برتقالية أو حمراء قرنفلية، أو زرقاء زمردية، أو غبراء باهتة. راجع كتاب الله والعلم الحديث ص. ١٠٥.

فجاء بها من درة لطمية.. على وجهها ماء الفرات يدوم[1].

ويطيب لنا أن نقول: لو قال هذا الكلام رجل من قرنين من الزمان ماذا كان يقال عليه..؟ نعم.

لو جاء رجل في القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي وقال ان هذه البحار مليئة بالذهب والفضة. ومشحونة بالحديد والمنجنيز. وتوجد بها كميات هائلة من النحاس.

ومادة الفسفور هل كان يجد آذانا صاغية لما يدعيه..؟

أم أنه كان يرمى عندئذ بالهوس والجنون..؟

لقد حدث القرآن الكريم بهذه الأشياء منذ أربعة عشر قرنا ولكن علماء المسلمين لم يتنبهوا لكل ما ذكره الله تعالى في كتابه، وذلك لحكمة أرادها الحكيم الخبير.

لقد نزل هذا الكتاب ليكون خاتما للكتب والرسالات السماوية، وبالتالي فهو المنهج والدليل والصراط المستقيم للبشرية كلها.

ومحال أن يحيط بكل ما فيه جيل من الأجيال أو أمة من الأمم ومن هنا نستطيع أن نقول: إن كتاب الله تعالى ليس معجزاً بعباراته فقط ولا ببلاغته فحسب ولكنه معجز لأنه يخاطب البشرية جمعاء حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ان كل جيل من الأجيال يتعاقب على كوكب الأرض سيجد في كتاب الله تعالى عطاء لحياته، وكشفا جديدا في المعرفة والحكمة، وطريقاً ممهداً للثروات المخبوءة، والكنوز المرصودة في باطن الأرض أو في أعماق البحار وقد وعد الله سبحانه وتعالى خلقه بكل ذلك قال:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾

---

(١) قاله الشاعر الهذلي: واللطيمة: الجمال التي تحمل العطر، وقيل العنبرة التي لطمت بالمسك فتفتت به حتى نشبت رائحتها. راجع تفسير القرطبي ١٠: ٨٧.

(فصلت: ٥٣).

إن المسلمين لو تمسكوا بكتاب ربهم لدانت لهم الدنيا كما دانت لهم سابقاً ولكنهم وضعوا هذا الكتاب وراء ظهورهم، وجعلوه تمائم لمرضاهم ورقياً لأطفالهم، وحلية لمنازلهم، وتجاهلوا قول الله تعالى عنه:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الأسراء: ٨٨).

لن يأتوا بمثله في بلاغته.

ولن يأتوا بمثله في إعجازه.

ولن يأتوا بمثله لأنه يحوي تاريخ هذا الكون الذي لا يحد، وتاريخ نشأة البشرية عندما أرادها الله تعالى لتكون خليفة له في أرضه. ولقد وضع الله سبحانه وتعالى هذا الكتاب دستوراً ومنهجاً لحياتهم، واصلاحاً وهداية لدنياهم ودواء وعلاجاً لأمراضهم.

فعل الله ذلك لأنه الخبير بكل ذرة من ذراتهم، وبكل خلجة من خلجاتهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

وإذا كان ذلك كذلك فيطيب لنا أن نقطع سوياً شوطا آخر في المبحث وعلى الله قصد السبيل.

الرياح بين العلم والدين

الرياح: قوة من قوى هذا الكون، وجند من جنود الله قال تعالى:
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١).

والله سبحانه وتعالى يرسلها في صورة ما من صورها في الوقت المقدر على من يريد به الهلاك والدمار، أو بالحيا والحياة.

روى أبو داود عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله - ﷺ: يقول: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها».

ويرى بعض العلماء أن عامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب كقوله تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (القمر: ١٩).

وكل موضع ذكر بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (الفرقان: ٤٨).

وقد ورد الريح في القرآن على سبعة أوجه:

الأول: بمعنى القوة والدولة قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٥، ٤٦).

أي تذهب قوتكم ونصركم. والقوة عز لأهلها، والمؤمن القوي خير

وأحب الى الله من المؤمن الضعيف قال الشاعر:

إذا هبت رياحك فاغتنمها   فإن الخافقات لها سكون

ولا تغفل عن الاحسان فيها   فما تدري السكون متى يكون

قال قتادة: إنه لم يكن نصر قط إلا بريح تهب. ومنه قوله عليه السلام: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور».

وذكر الله تعالى عند لقاء العدو يؤدي الى أمور جوهرية في سير المعركة:

١- أن الجندي الضعيف يتصل بالقوة التي لا تغلب. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ١٨٦).

٢- ثقة الجند بالله تعالى الذي ينصر أولياءه، وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها فهي معركة لله لتقرير ألوهيته وإخلاص العبادة له، وطرد الطواغيت الأدعياء للألوهية. وإذن فهي معركة لله لتكون كلمته هي العليا.

معركة خالصة له ليست للسيطرة ولا للمغنم.

معركة لنشر دين الله وليست للاستعلاء أو التحكم.

﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦).

والتنازع يأتي حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه.

والتنازع يكون عند اتباع الهوى المطاع الذي يوجه الأراء والأفكار.

فإذا استسلم الناس لله ورسوله أنتفى السبب الأول للنزاع بينهم. فاذا اختلفت وجهات النظر بعد ذلك فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل صاحبه يتمسك برأيه مهما تبين له وجه الحق في غير ما يتمسك به.

الثاني: بمعنى العذاب في العقوبة قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم

بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٤، ٢٥).

وقال تعالى:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ (الذاريات: ٤١، ٤٢).

وقال أيضا:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر: ١٩، ٢٠).

تقول الروايات: إنه أصابهم حر شديد واحتبس عنهم المطر، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ثم ساق الله إليهم سحابة ففرحوا بها فرحاً شديداً وخرجوا يستقبلونها في الأودية، وهم يحسبون فيها الماء. ولسان حالهم يقول:

﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ (الأحقاف: ٢٤).

وجاءهم الرد من الخالق المبدع:

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٤، ٢٥).

وهي الريح الصرصر العاتية التي ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ (الذاريات: ٤٢).

وتصور الآيات أن الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٥).

وهذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها الناس: فهذا الوجود حي، وكل قوة من قواه واعية، وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه.

والانسان أحد هذه القوى، وحين يؤمن حق الايمان ويفتح قلبه

للمعرفة الواصلة يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب معها وأن تتجاوب معه، تتجاوب الأحياء المدركة بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والادراك، ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق، والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالاستار التي تدركها البصائر المفتوحه ولا تراها الأبصار.

وقد أدت الريح ما أمرت به فدمرت كل شيء فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم[1].

راحوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

وقال شاعرهم يصف حالهم وما صاروا اليه:

فدعا هود عليهم دعوة أضحوا همودا

عصفت ريح عليهم تركت عادا خمودا

سخرت سبع ليال لم تدع في الأرض عودا

الثالث: بمعنى نسمات الرحمة قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٧).

الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل الرياح، فهي لا ترسل من غيره ولا ترسل من تلقاء نفسها ولكن الله سبحانه هو الذي يرسلها.

يرسلها بالرحمة لعباده.

يرسلها محملة بالأمطار ولا تتنزل إلا بأمره، ولا تهطل إلا بارادته فهي منساقة مأمورة. حتى تأتي الأرض الموات فتهبط بأمر ربها لإحيائها عندها تكون قد أدت ما أمرت به. وتقوم الأرض بأمر الله تعالى باخراج

---

(١) راجع في ظلال القرآن ٦: ٣٢٦٧.

الغلال والثمار. وهذه الدورة التي قامت بها الرياح والأرض في اخراج الثمر وتقديم العطاء، ليس فيها عسر ولا نصب، ولا يكتنفها جهد ولا مشقة لأنها تسير بقوة الله التي لا تغلب.

وبأمره الذي لا يتخلف، ولا يتوقف.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

كذلك قضية البعث، قضية إحياء الموات، قضية جمع الذرات المتناثرة والأشلاء المتباينة. هينة لينة على الله الذي خلقها من عدم هو قادر على إعادتها بعد تفرق. عن أبى رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق..؟ وما آية ذلك في خلقه..؟

قال: أما مررت بوادي قومك جدباً ثم مررت به يهتز خضراً..؟

قال: نعم.

قال: فتلك آية الله في خلقه.

وقيل: وجه التشبيه أن احياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم فتنشق عنهم القبور، ثم تعود اليهم الأرواح ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤).

ان المنهج الاسلامي: ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون ابتداء من نشأته وبروزه الى كل حركة فيه وكل تغيير وكل تعديل كما ينفي الجبرية الآلية التي تصور الكون كأنه آلة، فرغ صانعها منها وأودعها القوانين التي تتحرك بها ثم تركها تتحرك آلية جبرية حتمية وفق هذه القوانين.

وهو تصور حي ينفي عن القلب البلادة، بلادة الآلية والجبرية ويدعها أبدا في يقظة وفي رقابة كلما حدث حدث وفق سنة الله، وكلما تمت حركة وفق ناموس الله انتفض القلب لقدرة الخالق المبدع.

الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

وكل شيء عنده بميزان.

ليس للعفوية مكان، ولا للطفرة موضع.

الرابع: بمعنى اللاقحات قال الله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢).

يقول القرطبي:

معنى لواقح حوامل لأنها تحمل الماء والتراب، والسحاب والخير والنفع.

وقال الأزهري:

وجعل الريح لاقحا لأنها تحمل السحاب أي تقله وتصرفه قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ (الأعراف: ٥٧) أي حملت الماء، وفوق لواقح إذا حملت الأجنة في بطونها.

ويقول صاحب اللسان:

اللواقح من الريح: التي تحمل الندى ثم تمجه في السحاب فإذا اجتمع في السحاب صار مطراً.

والعلم الحديث يؤيد أن الرياح تلقح الأشجار والنبات فيصدق عليها أنها «لاقح» بمعنى ملقوحة. ويصدق عليها أيضا بأنها «لاقح» بمعنى «ملقحة» فكلمة لاقح تصلح لكونها اسم فاعل، ولكونها اسم مفعول، وذلك حاصل علميا، فهي عندما تمر على أزهار الذكر من الأشجار والنبات تأخذ معها لقاح الذكر فيصدق عليها بأنها «ملقحة» بفتح القاف.

وعندما تمر على أزهار الأنثى من الأشجار وتضع ما بها من اللقاح، فانها يصدق عليها بأنها «ملقحة» بكسر القاف.

لذا فان العلم الحديث يرى أن الأزهار التي تلقح بواسطة الرياح

تكون صغيرة وليس لديها أية صفة جاذبة للحشرات، فالغلاف الزهري قليل النمو، والأزهار مكشوفة ومعرضة للرياح.

أما كونها حوامل للسحب فان العلم الحديث قد أثبت أن الهواء الذي يحيط بنا أو الجو يحتوي على ماء تختفي المياه في الهواء وتتحول الى غاز يدعى بخارا مائيا، ويمكن للهواء الحار أن يحمل من البخار المائي مقدارا أكبر مما يحمله الهواء البارد، وكلما ازدادت حرارة الهواء ازدادت قدرته على حمل البخار المائي[1].

وصدق ربي في قوله:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ (فاطر: ٩).

الخامس: بمعنى مسيرات السفن في البحار:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢).

يقول القرطبي:

وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله تعالى في الشدائد. وأن المضطر يجاب دعاؤه، وان كان كافرا لانقطاع الأسباب ورجوعه الى الواحد الأحد ربّ كلّ شيء ومليكه[2].

وقال بعض المفسرين:

ان الله تعالى استجاب لدعائهم تنفيذاً لوعده لهم.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ

---

(١) العلم الحديث حجة للانسان أم عليه ٧٢-٧٣.

(٢) راجع تفسير القرطبي عند حديثه عن هذه الآية.

﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٦٢، ٦٣).

وإذا كان ذلك كذلك فمن هو المضطر..؟

قال الامام السدي: الذي لا حول له ولا قوة.

وقال ذو النون: هو الذي قطع العلائق عما دون الله تعالى.

وقال سهل بن عبد الله: هو الذي إذا رفع يديه الى الله تعالى داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها.

وجاء رجل الى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر. قال: إذا فاسأله فانه يجيب المضطر اذا دعاه. قال الشاعر:

وانـي لادعو الله والأمر ضيق ... علي فما ينفك أن يتفرجا

ورب أخ سدت عليه وجوهه ... أصاب لها لما دعا الله مخرجا

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال: قال رسول الله - ﷺ - في دعاء المضطر:

«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني الى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا اله الا أنت[1]».

ولقد ضمن الله تعالى اجابة المضطر اذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه والسبب في ذلك أن الضرورة اليه وعدم الالتجاء الى غيره، ينشأ عن الاخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللاخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر.

في الحديث عن رسول الله - ﷺ:

«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده».

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

السادس: بمعنى رياح النصر قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ٩).

الازدواجية بين الضوابط والموازنات في منهج القرآن والعلم الحديث

من سنن الله الكونية أن جعل الازدواج قواماً لجميع الكائنات حتى يكمل بعضها بعضا، وتتوالى آثارها الناتجة عن هذا الازدواج في تعمير الكون وتحقيق دور الخلافة في الأرض قال تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦).

وهذه الآية تدل على أن كل الأحياء، وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ويتم التلقيح بينها إما عن طريق الرياح التي تهب في موسم الاخصاب قال الله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ (الحجر: ٢٢).

فهي بهبوبها تحمل طلع النبات الذكر الى النبات الأنثى وبهذا يتم التلقيح وإما عن طريق الحشرات والفراشات التي تنتقل من زهرة الى أخرى فتحمل أرجلها وأجنحتها حبيبات اللقاح.

وإما أن يتم عن طريق الأمطار التي تهطل في هذه المواسم فتحمله معها الى شتى النباتات قال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (طه: ٥٣).

وبعض أنواع النبات تحمل في ذاتها الزوج الآخر فهي تضم أعضاء التذكير والتأنيث مجتمعة في زهرة واحدة أو متفرقة.

قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤).

وهذا النبات كائن حي له روح كما كان يقول الفيلسوف أرسطو في دولة اليونان، وأستمر الوضع على ذلك حتى كان القرن الثالث عشر أعلن «كارل فون ليني» أن النبات له مواصفات الحيوان والانسان الا أنه ليس له قدرة على الحركة.

وفي القرن التاسع عشر أعلن «دارون» أن النباتات المتسلقة تتمتع باستقلالية الحركة. وأكد ذلك «راؤول فرانسيه» بقوله: إن النبات يحرك جسمه بحرية ورشاقه، وبشكل لا يقل عن الانسان أو الحيوان.

ومن حركته سموق فروعه الى أعلى وزحف جذوره في باطن التربة الى مسافات بعيدة فاذا اعترضها حاجز صخري، أو حائط دارت خلفه حتى تصل الى بغيتها، وعلماء النبات في هذه الآونة يقدمون الأدلة القاطعة التي حصلوا عليها عن طريق التجارب: إن النبات يرى ويسمع، ويلمس ويتذوق، ويشم بحساسية فائقة. ليس هذا فحسب بل نراهم يقولون: إن النبات يستطيع أن يقرأ أفكار البشر والحيوانات ويستجيب لعواطفهم، ويدافع عن نفسه ضد من يريد الضرر به.

ومن الأشياء التي رصدها العلماء عن النخلة الأنثى، أنه اذا كان يجاورها ذكر، وعملوا على قطعه حزنت عليه حزناً شديداً وتعبر عن حزنها هذا بعدم حملها للثمار، وقد يستمر هذا الحزن سنة أو أكثر ولا تعود الى طرح الثمار إلا إذا جاء صاحبها مهدداً بأنه سيعمل على قطعها إن لم تثمر في العام القابل.

وإذا كان ذلك كذلك فالازدواجية أوجدها الله في عالم النبات لأنه كائن حي ككل المخلوقات الأخرى. التي تعمل بمشيئة الله وقدرته على استمرار نوعها وامتداده عبر دروب الزمن.

والنبات ككل المخلوقات الأخرى تخاف الله وتطيعه في أوامره وتسبح له أناء الليل وأطراف النهار قال تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ (الأسراء: ٤٤).

وإنه لمشهد فريد حين يتصور القلب كل حصاة، وكل حجر، كل حبة وكل ورقة كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل انسان، كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء كلها تسبح لله وتتوجه إليه في علاه.

ولكن لماذا لا نفقه تسبيحهم..؟

ولماذا لا نسمع تراتيل أصواتهم..؟

لا يحدث هذا لأننا محجوبون بصفاقة الطين، فغشى على بصائرنا فلا ترى، وأغلق على آذننا فلا تسمع.

ولكن حين تشف الروح وتجلى البصائر فإنها تزال من أمامها الحجب والمساتير فترى ما لم تكن ترى، وتسمع ما لم تكن تسمع. وعندها يتحول الانسان من ترابية الأرض الى شفافية السماء. فيكون الله تعالى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه الامام البخاري في صحيحه.

وهذا النبات ملتزم بالضوابط والموازنات التي وضعها الله سبحانه وتعالى بالنسبة لخلقه جميعا. فإذا تعدى النبات أو الجماد أو الانسان ما قدر له وجد أمامه جند الله لتصده وترده عن غلوائه.

والواقعة الآتية مثل بارز على أهمية تلك الضوابط. فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار في استراليا كسياج وقائي. ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطّى مساحة تقرب من مساحة انجلترا، وزاحم أهل المدن والقرى وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة الأخرى. ولم يجد الأهالي وسيلة تصده عن الانتشار. وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت يتقدم في سبيله دون عائق.

وطاف علماء النبات والحشرات بنواحي العالم يبحثون عن وسيلة

توقف جيش الاختلال هذا. وأخيرا وجدوا حشرة شرهة لا تعيش الا على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار، وليس لها عدو يعوقها في استراليا، وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار وقضت على كل أسلحته، ثم ذهبت جيوش هذه الحشرة من حيث أتت ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية، تكفي لصد الصبار عن الأنتشار الى الأبد.

وصدق ربي في قوله:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: ٧). وأيضا قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١).

وهذه واقعة أخرى للضوابط والموازنات التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون والتي تدل دلالة قاطعة على قدرة الله تعالى وأن كل شيء عنده بمقدار. وصدق ربي في قوله:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢).

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

لقد كان الاستعمار البريطاني يرابط على أرض الهند، وكان الجنود لا يجدون شيئا يتخلصون به من فراغهم القاتل وأيامهم الرتيبة سوى العبث بمقدسات البلاد أو الاطاحة ببعض الرقاب.

وفي يوم من الأيام أخذ أحد الجنود أجازته وقرر أن يقضيها في بلدته انجلترا ولكن ماذا يأخذ من الهدايا لعروسه من هذه البلاد؟ وبعد أن أعياه التفكير قرر أن يأخذ جلد ثعبان لما فيه من نقوش زاهية وأشكال هندسية بديعة.

وعندما هبطت به الطائرة على أرض بلده كان يضع هذا الجلد على كتفه وكأنه لوحة فنية تبهر العيون، ولمح الجلد هذا أحد تجار الأحذية فقرر أن يستولي عليه مهما كان الثمن. وفعلا تحقق له ما أراد. وصنع منه مجموعة من أحذية السيدات. وما كاد هذا الصنف الجديد ينزل الى

سوق الأحذية، حتى تهافتت السيدات على شرائها بأثمان باهظة، وتكاثر الطلب عليه. الأمر الذي جعل تجار الجلود يتجهون الى أرض الهند لشراء العديد منها وانتشر هواة الصيد يقتنصون الثعابين ويسلخون جلودها ويبيعونها بمثل وزنها ذهباً.

وما هي إلا فترة وجيزة من عمر الزمن حتى تناقصت الثعابين الى درجة كبيرة بل كادت أن تتلاشى بالكامل.

وكانت الهند في ذلك الوقت تزرع أراضيها بحقول القمح. وعندما اقترب موسم الحصاد. وذهب الفلاحون لجمع محصولهم وجدوا أن الفئران قد التهمته كله وكانت هذه ظاهرة عجيبة لم تحدث لهم قبل ذلك، وأخيرا أهتدوا الى أسباب الكارثة. لقد كانت الثعابين - وهي من جند الله - تتغذى على الفئران فكانت تقل ولا تكثر ولهذا كانت تسلم لهم حقول القمح ولكن عندما انقرضت الثعابين - انتشرت جيوش الفئران، فقضت على الغذاء الأساسي الذي كانوا ينتظرونه. وصدق ربي في قوله:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

وأيضا:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢).

فاذا تدخل الانسان بطمعه وجشعه لتغيير هذا النظام عاجله ربه بالعقوبة وصدق ربي في قوله:

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣١).

وإذا كانت الازدواجية هذه بالنسبة للنباتات فهل نجدها أيضا في دنيا الجمادات والمائعات..؟

لقد أثبت العلماء أن الجماد يتكون من الذرات، وأن كل ذرة مزدوجة من نواة (بروتون) وكويكب (الكترون) يدور حولها.

وأن النواة كهرباء موجبة والكويكب كهرباء سالبة. فكل ما في

الجماد مزدوج ولا يتم كيانه الا بهذا الازدواج.

والعجيب في الأمر أن الموجب اذا التقى بالسالب في عالم الكهرباء أنتج الضوء والحرارة، وسيّر المركبات والطائرات، وفجر البحار وشق الأنهار وتوالت الانتاجية له والتي لا تقف عند حد.

فاذا التقى السالب بالسالب، أو الموجب بالموجب صار عقيماً لا ينتج شيئا فلا يرسل دفئا ولا يبعث ضوءا.

وعالم المغناطيسية كالكهرباء تماما مكون من قطب سالب وآخر موجب فاذا التقى السالب بالموجب انجذب كل منهما الى صاحبه. أما اذا كان سالباً وسالباً أو موجباً وموجباً فإنهما يتنافران ولا يلتقيان ويتباعدان ولا يقتربان.

يحدث هذا في عالم الجماد، ويحدث أيضا في عالم النبات والحيوان ولا يحدث العكس الا في عالم الانسان عندما تفسد الفطرة وتنتكس الجبلة وتعيش فئة من البشر في بؤرة التعفن، والانسلاخ من أبسط قواعد الآدمية، لقد كان من نتائج انجذاب الموجب مع الموجب والسالب مع السالب في عالم الانسان أن تفشى ما يسمى بالطاعون الجديد.

أو طاعون الشواذ.

أو القنبلة الموقوته في جسم الانسان.

وأخيرا الاسم الحركي له «الايدز»

لقد سموا (الايدز) بطاعون الشواذ ونفس هذه التسمية هي التي أطلقها الرسول - ﷺ - منذ أربعة عشر قرناً حيث قال «ما ظهرت الفاحشة في قوم إلا أصابهم الله بالطاعون».

نعم طاعون الشواذ أو الايدز.

الذي يقول عنه الدكتور «كليفورد لين» ان ميكانيكية التكاثر في هذا الفيروس تعد من أعظم وأضخم التأثيرات التي رأيتها في علم «البيولوجيا» وهذا يفسر الأثر التخريبي أو التدميري لهذا المرض.

ذلك أن هذا الفيروس عندما تختفي من أمامه خلاياه المساعدة عند تقدم المرض يعمل على تدمير بيته وتدمير الخلايا الباقية أيضاً.

ويظل المريض إزاء ذلك بمنأى عن الشفاء.

إنها عملية تدمير.

تدمير لكل الخلايا.

وتدمير للجسم كله.

وتدمير لبنية المجتمع قاطبة الذي يسمح لهؤلاء الشواذ بالاقامة فيه.

وهنا تبرز عظمة الاسلام وحكمته في جعل الزنى واللواط من أبشع الجرائم وجعل الحدود المتعلقة بهما في مكانهما الصحيح.

وتبرز عظمة الأسلام أيضا في تصوير عقاب المجتمع الذي ينساق وراء هذه الشهوة القبيحة حيث يدمرهم تدميراً قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ (الصافات: ١٣٣-١٣٦).

وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها.

ويقول الله أيضاً:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٢، ٨٣).

وهذه الصورة المقلوبة أشبه شيء بالفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الانسان الى درك الحيوان بل إن كثيراً من الحيوانات تعف ملتزمة عند حدود فطرتها. ومن سنوات قليلة في البلاد التي تسمى ببلاد التمدن والتحضر خرجت المسيرات والمظاهرات التي كان يقودها الشواذ جنسياً في أوربا وأمريكا مطالبين ببعض الحقوق التشريعية والمدنية الخاصة بهم

وأمكنهم أن ينالوا بعض الحقوق المتعلقة بالحرية الشخصية وممارسة الفحشاء جهراً في حماية القانون.

وتحقق لهم ما أرادوا وأمكنهم بذلك أن يستغلوا قانون البشر الذي يخطئ ويصيب، ويجامل ويحابي، ويغفل وينسى في تحقيق أغراضهم. فهل أمكنهم الافلات من قانون الله تعالى؟ أو من عقاب السماء؟

لا. ليس في استطاعتهم ذلك. لقد حاصرهم الله تعالى وقضى على كل مقاومتهم عن طريق «الايدز» الذي لا فكاك فيه ولا مهرب من شباكه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤).

وإذا كانت الازدواجية في عالم الجماد قد شملت الذرة والمغناطيسة فنجد الازدواجية أيضا في ملح الطعام الذي يتكون من «صوديوم» و«كلوريد» والأول شديد الاشتعال، والثاني غاز سام - إنه الموجب والسالب ونحن لا نستطيع بأي حال من الأحوال الاستغناء عن ملح الطعام الا في الضرورات الملحة التي تفرض علينا ذلك.

وهذا الشيء الذي نحبه لا نقبله إلا عن طريق الازدواجية.

فإذا انفصلا أشعل أحدهما الحرائق، ودمر المنشآت، وكان الآخر سماً قاتلا لكل من يلمسه أو يقترب منه.

والازدواجية نجدها أيضا في الماء. الماء الذي يعد أول شيء برز في هذا الكون قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾

والماء أيضا هو أساس تكوين الخلية الأولى في النبات والحيوان والانسان قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وقال أيضا:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ (النور: ٤٥).

وقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ (الفرقان: ٥٤).

هذا الماء يتكون من «الهيدروجين» و«الأكسجين».

والأول مشتعل والثاني يساعد على الاشتعال.

الأول موجب والثاني سالب.

وبغبر تزاوجهما ما كان هناك نبات ولا حيوان ولا انسان ولاختفت الحياة جملة من على هذا الكوكب.

والنتيجة أن كل ما في الكون محتاج الى ما يكمله، وانفرد بالوحدانية المطلقة الله وحده فانه غير محتاج الى ما يكمله. قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص: ١-٤).

وكل ما نشاهده أو ندركه خاضع لهذا الأزدواج من ليل ونهار، وحياة وموت وجسم وروح، وأرض وسماء وطاقة ومادة. حتى الصفات والأحوال من قوة، وضعف، ورضى وغضب، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وخير وشر، ونبات وجماد، وأرض وسماء وكواكب ونجوم، وناطق وصامت وحيوان وانسان.

نعم الانسان الذي خلقه الله تعالى من طين الأرض ونفخة من روحه فأصبح مكوناً من مادة وطاقة، وظهر فيه عنصر الازدواجية قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨، ٢٩).

وقال أيضا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ (السجدة: ٧ و٩).

وإذا كان الله سبحانه وتعالى: قد فطرنا من عنصر تغلب فيه طبيعة

المادة فان الله سبحانه وتعالى - خلق عالمين آخرين من عنصر الطاقة - هما عالم الملائكة المخلوقين من النور.

وعالم الجن المخلوق من النار.

والانسان ينقاد لهذين العالمين المزدوجين. عالم الملائكة الممثل للخير وعالم الجن الممثل للشر.

فالانسان يقضي حياته في صراع عنيف بين هذين الجانبين، فاذا نجح في هذا الصراع وفاز في هذا الابتلاء فهو من المفلحين، واذا فشل وانجذب الى الشر فقد خسر نفسه ودنياه وذلك هو الخسران المبين.

والملائكة تتنزل على المؤمنين الأتقياء قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ (فصلت: ٣٠، ٣١).

والشياطين تتنزل على الفجار الآثمين قال تعالى:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٣).

ومن هنا كان الانسان مبتلى بحافزين قويين هما حافز الخير وحافز الشر والسعيد من هداه الله والشقي من أضله الله قال تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

يقول صاحب الظلال:

(ان الابتلاء بالخير أشد وطأة. لأن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة. ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم، كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى

نفوسهم ولا تذل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء وما يغري من متاع وما يثير من شهوات وأطماع.

كثيرون يصبرون على التعذيب والايذاء فلا يخيفهم ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الاغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء.

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذل الأرواح.

ان الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها. أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينميها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى اذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء[1].

ومن مظاهر الازدواج، أن لكل انسان قريناً من الملائكة يحفزه الى الخير وقرينا من الشياطين يدفعه الى الشر.

روى الامام مسلم والامام أحمد عن أبن مسعود عن النبي - ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك يا رسول الله...؟

قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني الا بخير».

وروى الترمذي وابن حبان والنسائي عن النبي - ﷺ: ان للشيطان لمسة بابن آدم، وللملك لمسة فأما لمسة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمسة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله. ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان».

---

(١) راجع في ظلال القرآن ٤: ٢٣٧٧-٢٣٧٨.

وهذا الانسان الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته لم يخلق عبثاً وإنما وجد لغاية، وهي عبادة الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

واهبط الى الأرض ليقوم بدور الخلافة

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

وحياته رحلة قصيرة، وأيامه معدودة فوق هذا الكوكب الأرضي وأجزاؤه وتركيباته وأطرافه صنعت لتلائم هذا الدور وتتناسب مع تلك المدة فهو لا يبقى في رحلته أكثر مما قدر له، والا تلفت أعضاؤه وفسدت خلاياه فلا تستطيع القيام بدور أو المشاركة في حياة.

وهذا الانسان لا يكلف أكثر مما يطيق، ولا يعطى من المعرفة فوق ما تحتاجه هذه الرحلة، والا اختلطت عليه الأشياء وتعددت أمامه السبل.

وهذا الكون مخلوق ليتناسب وقدراته ويتلاءم مع مواهبه فلا يرهق من أمره عسرا. وكل شي محدود ومقدر. ليس للصدفة مكان ولا للرأي العجل موضع

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

وهذا الانسان الفاني الضعيف يستطيع أن يتصل بالقوة الكبرى، قوة الله يتصل بلا وساطة أو كهانة. قال تعالى:

﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠).

وكل انسان يأخذ حقه كاملاً لا ينقص منه شيء وحياته ليست بقاؤه على ظهر الأرض فقط، وليست هذه الرحلة القصيرة المحدودة ولكن هناك حياة باقية بعد هذه الحياة الفانية، فما نقص هنا أدخر له هناك، وما حرم منه في الدنيا يضاعف له في الدار الآخرة.

وإذا كان ذلك كذلك فما الداعي الى القلق الذي يمزق الانسان في داخله..؟ أو الحسرة على ما فات أو التألم على ما حرم منه..؟

وهل استطاعت البشرية بما اخترعت من مبادئ وأفكار أن توجد الرضا في داخل النفس..؟

إن الواقع المشاهد ينفي ذلك.. ويقرر أنها أوجدت التكالب والصراعات والحروب المدمرة.

لأنها لم تستطع أن تسوّي بين الأفراد جميعاً ولن تستطيع.

والمذاهب المادية على ما بذلته من وعود، وما سودته من قرارات لم تستطع أيضا أن تزيل الدمامة عن مشوه الصورة أو تعوض الانسان فقد عضو واحد من أعضائه.

ولم تستطع بالرغم من تقدمها في عالم المادة أن تجعل من ضعف النظر قوة ومن قصر القامة طولا أو من العقم إخصاباً أو أن تتحكم في نوع الانجاب ولكن الدين وإن لم يفعل ذلك فهو يقدم البديل لذلك كله.

إنه يقدم الاطمئنان الى عدل السماء وحكمة الخالق يقول الله تعالى:

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء: ١٩).

ومع ذلك فنصيبه مدخر، وأجره محفوظ، وقد لا تنكشف لنا حكمة الخالق وعدله من قريب فعلينا أن نترصد لها.

وحكمة الله مبذولة لخلقه، وتعطى لمن يصطفي من عباده قال تعالى:

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

وإلهامات الله لا تقف عند حد ولا تنتهي عند عصر ولا يختص بها جيل من الأجيال يقول الرسول - ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها» والله أعلم.



ثبت بالمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. للاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

٣- صحيح الامام البخاري. للامام محمد بن اسماعيل البخاري.

٤- صحيح الامام مسلم. للامام مسلم بن الحجاج.

٥- صحيح الامام الترمذي.

٦- سنن ابن ماجه.

٧- المسند. للامام أحمد بن حنبل الشيباني.

٨- في ملكوت السماوات والأرض. للاستاذ علي عبد العظيم ط: مجمع البحوث الاسلامية - الأزهر - القاهرة.

٩- الجغرافيا الطبيعية. للدكتور يوسف الانصاري «جامعة عين شمس القاهرة»

١٠- العلم الحديث حجة للانسان أم عليه. للدكتور عبد الله عبد الرحيم العبادي دار الثقافة - قطر - الدوحة.

١١- الكون بين العلم والدين. للدكتور: محمد جمال الدين الفندي. ط: المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة.

١٢- الله يتجلى في عصر العلم. تأليف: نخبة من العلماء الأمريكين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض - مؤسسة الحلبي وشركاه - للنشر والتوزيع - القاهرة.

١٣- المنهج الايماني للدراسات الكونية. للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر المطبعة السعودية: جده المملكة العربية السعودية.

١٤- كوكب الأرض. للدكتور حسن أبو العينين.
١٥- وجه الأرض. للدكتور حسن أبو العينين.
١٦- الجواهر في تفسير القرآن. للشيخ طنطاوي جوهري.
١٧- في ظلال القرآن: سيد قطب ط دار الشروق - بيروت القاهرة
١٨- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ط وزارة الثقافة - القاهرة.
١٩- القرآن والعلم. د. جمال الدين الفندي - دار المعرفة القاهرة.
٢٠- مدخل الى موقف القرآن الكريم من العلم: للدكتور - عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة - بيروت.

فهرس الموضوعات

صفحة